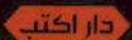
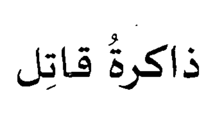
رواية

سلمى الغزاوي

ذَاكِرةُ قَاتِل

كي لا تنسى




ذاكرةُ قاتِل

ذاكرةُ قاتِل
كي لا تنسى

سلمى الغزاوي

الطبعة الأولى ، القاهرة 2018م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رجب عواد

رقم الإيداع 3133 /2018

I.S.B.N: 978-977-488- 558 -7



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

ذاكرةُ قاتِل

كي لا تنسى

رواية

سلمى الغزاوي



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى روح والدي الغالي الذي حرّره "الزهايمر" من سجن الذكريات..

وإلى كل شخص انعتق من أغلال ذاكرته، وحلّق حُرًّا في سماء النسيان..



إنها الثالثة صباحًا، بتوقيت النسيان..

لكن يقال إن الليل كثيرًا ما يتحالف مع الذاكرة ضد النسيان، ربما لهذا تنشط ذاكرتنا أكثر بعد أن يُسدل الليل ستاره الحالك، ونجد أنفسنا نتسكع رغمًا عنا في شوارع الذاكرة العتيقة، لنكتشف في النهاية أن ذاكرتنا ملتصقة بنا إلى الأبد..

أحاولُ أن أستأنف الكتابة لكن عبثًا، لأنني كلما أمسكت قلمي وحاولت خطَّ أسطر جديدة في روايتي هذه، أجدني أستحضر قصتي معه، تلك القصة التي كانت قصيرة..كعمر فراشة..

ما زلتُ أتذكَّر ذلك اليوم الذي أطلعته فيه على مشروع هذه الرواية،يومها نظر إليَّ طويلًا قبل أن يسألني إن كنت سآتي على ذكره في فصل من فصولها إذا ما ساعدني في الحصول على بعض المعلومات من أجل كتابتها، حينها ضحكت وأجبته بأن عملي ككاتبة صحفية علمني ألا أكشف أبدًا عن هُوية مصدري مهما يكلف الأمر، لكنه فاجأني بعد مرور وقت على تعارفنا بسماحه لي بالكتابة عنه بطلًا

لإحدى رواياتي القادمة،شريطة أن أغير بعض التفاصيل وأجمل الحقيقة بمساحيق الخيال، قَبِلتُ عرضه المغري وطمأنته بأنني أُجيدُ مزج الحقيقة بالخيال، والحلم بالوهم في معظم كتاباتي العاطفية، دون أن أفطن ساعتها إلى أنه كان أصدق أوهامي، وأجمل أحلامي..

كنت أعلم أن الذاكرة عبارة عن مجموعة صور، وظللتُ مقتنعة فترةً طويلة بأن ذاكرتنا التي تتماهى مع ألبوم ضخم يضم كل ما خزنّاه وحفظناه من مشاهد وأحداث وجزئيات منذ نعومة أظفارنا، تمنحنا خاصية تغيير الصور التي يقدمها لنا الإدراك مستعينة في ذلك بمَلَكة التخيُّل، وبهذا يمكننا أن نحذف صورة لم يعد لوجودها بذاكرتنا أي معنى لنفسح المجال لصورة أخرى كما قرأت في كتاب ما، إلا أنني اكتشفت الآن أن كاتبه لم يكن مُحقًّا، ولو كان كذلك فلماذا إذًا تختفي كل الصور الذهنية المخزنة في تجويف ذاكرتي، لتبقى صورته وحدها مرتسمة في خيالي، لتذكرني بعجزي التام عن نسيانه، ونسيان ما كان بيننا، وما لم يكن...؟

أظنُّ أنه يتحتم عليَّ أن أنزف ذاكرتي على الورق، لكن من أين سأبدأ؟

والأهم: من أين يأتي النسيان؟

***

أحيانًا، على الإنسان أن يضع نقطة النهاية ليبدأ من جديد، وأن يعود إلى مفترق طرق حياته واختياراته ليسلك الطريق الذي كان مقُدرًا له أن يسير فيه، إلا أنه زاغ عنه، وهذا ما فعلتُه بالضبط عندما اكتشفت أنني قد وصلت إلى نقطة اللاعودة إلى أحضان الصحافة، لذا قررتُ الابتعاد عن الكتابة الصحفية التي بدأت تنخرني،كي أتفرغ للكتابة الروائية، قدري..

الخيار لم يكن سهلًا قط، لكن في الأخير، انتصرت الكاتبة التي بداخلي على الصحفية. أذكر أنه عندما أطلعته على روايتي الأولى: "تاريخ النسيان"، تصفحها بتمعُّن قبل أن يبتسم ويقول:

– قدرك أن تكوني روائية..

كما ما زلت أتذكر أنه قال لي بعد أن أنهى قراءة روايتي التي أهديتُها إليه، والتي كانت بطلتها تعاني مرض "الزهايمر"، جملة لم أفهمها حينها، لكنني الآن عرفتُ كم كان مُحقًّا، وأن ملاحظته

كانت في محلها، في ذلك اليوم، بعد أن طلبت منه أن يُبدي رأيه في باكورة أعمالي، صمت قليلًا قبل أن يقول:

– أعجبتني روايتك كثيرًا، أنتِ كاتبة موهوبة، لكن ألم تفكري في أن بطلتك التي أُصيبت بمرض النسيان محظوظة؟

نظرتُ إليه باستغراب، لا شك في أنه قرأ في عيني الحائرتين أنني بحاجة إلى توضيح، لذا أضاف:

– أظنُّ أن "الزهايمر" ليس بمرض، بل هو مجرد تجسيد للشفاء التام للذاكرة، في نظري، ليس هناك أفضل من أن يتحرر المرء من ذاكرته التي تعجُّ بالتفاصيل الموجعة.

لا أنكر أن وجهة نظره صدمتني، لكن بعد رحيله، تمكنت أخيرًا من فك شيفرة كلامه، وأصبحت أتمنى أن أصاب بمرض النسيان، لأنعتق من سجن ذكريات حبه، وأصير امرأة حرة، بذاكرة ناصعة البياض، تشبه كثيرًا هذه الأوراق البيضاء المبعثرة أمامي، والتي لا أدري متى سألطخ بياضها بحبري لأكتب روايتي التي راهنتُ عليها، والتي لم أمانع في خسارة كل شيء من أجل إخراجها إلى الوجود، كاملة..

بالرجوع إلى الورق، من الوارد جدا أنني سأبدو كاتبة كلاسيكية في نظر الكثيرين إذا ما تناهى إلى علمهم أنني اخترت كتابة روايتي الثانية مستعينة بالقلم و الأوراق، في زمن الحاسوب و لوحة المفاتيح،

لكن اختياري هذا جاء بعد أن مازحني ذات يوم هو، الغائب عن حياتي، الحاضر في استيهاماتي، قائلًا:

- بصراحة، أنتم الكُتاب الشباب تجعلون حياتكم رهينة للحواسيب و التكنولوجيا، ولا تفكرون و لو للحظة في أنه إذا تعطّلت هذه الأجهزة التي تخزن كتاباتكم فسيكون مصير إرثكم الأدبي هو الضياع..

فعلًا، الأضمن هو أن أفرغ ذاكرتي على الورق،لأن صخبها تعجز ذاكرة الحاسوب عن تحمله !

***

قلة من الناس تعلم أن الكاتب يشبه مقامرا مستعدا لخسارة العديد من الأشياء في سبيل تحقيق حلمه الذي عاش من أجله، معظم الكُتاب يحترفون لعبة الخسارة في كازينو الحياة، ربما لهذا يجن بعضنا، ويفضل البعض الآخر مغادرة منصة الحياة، عندما نكتشف أن الخسارة هي قدرنا، وأنه رغم محاولاتنا المستمرة للظفر بالخلود الأدبي، سنعجز عن جعل روليت الحظ يدور لصالحنا..

في هذه اللحظة، لا أخشى شيئا أكثر من خسارة رهاني الأدبي، لأنني الآن أشعر بمدى تشابهي حد التماهي مع ذاك المقامر المغامر، الذي تخلى عن كل ما كان يملكه ليتمكن من المشاركة في رهان جائزة اليانصيب الكبرى.

لكن السؤال هو: هل سيكون هو الرابح، أم أنه سيجد نفسه على قارعة الحلم، مُجَردا من كل شيء؟ والأهم: هل تستحق أحلامنا

الكبيرة أن نضحي بالعديد من الأشياء عسانا ننجح في تحقيقها وعيشها؟

صدقًا لا أملك الإجابة، كل ما أعرفه هو أنني راهنت بأشيائي كلها من أجل هذه الرواية التي لا أدري إن كانت ستجعلني أنضم إلى لائحة الكُتاب الذين كافأهم الأدب على احتفائهم لسنين بالخسائر، واحترافهم الصبر بانتظار أن تفتح أمامهم أبواب مملكة الإبداع..

لست أدري ماذا يحدث لي الليلة، هل أنا تحت تأثير الأرق، أم أن قصف الذكريات يجعلني أفكر في كل شيء وأي شيء من أجل التشويش عليها؟ ليس من عادتي أن أركض في مضمار الاحتمالات، ثم لماذا عليَّ أن أخمن نتيجة رهان لم أبدأه بعد، هل يفكر المقامر قبل أن يرمي نرده – احتماله؟

لا زال أمامي وقت طويل لأكمل روايتي – رهاني..

منهكة أنا.. أحس بأن الدنيا قد أفرغتني من كل الأشياء الجميلة بعده،وكأن جحافل الحزن التي احتلت صدري قد أحالتني إلى خراب.

قلت له ذات حديث إن الكتابة الروائية تحتاج إلى أن يكون الكاتب في حالة دمار داخلي، كي يلجأ إلى الكتابة رغما عنه، طمعا في أن يستطيع ترميم روحه، ها أنا ذي أمر بنفس الحالة، لكن المفارقة هي أنني لا أقدر على فتح جراحي لأكتب و أشفى بعدها، ممزقة أنا وحائرة بين قلبي المحترق و ذاكرتي المكتظة بالتفاصيل، بينما عقلي يهمس لي:

- اكتبي لتدفني أحزانك بين السطور، اكتبي كي لا تغتالك ذاكرتك الممتلئة أكثر مما ينبغي،اكتبي لتعبري سالمة إلى ضفة النسيان..

سأتّبع صوت عقلي إذن وأطلب اللجوء الأدبي إلى مملكة النسيان..

سأكتب كي لا أجن، كي لا أموت، سأكتب بلا توقف، كي أنسى..

***

عندما بدأت مشواري الصحفي، كانت لدي تصورات مثالية عن مهنة المتاعب، لكن فيما بعد، أدركت أن الصحافة قد تصبح أحيانًا لعبة قذرة، ينتصر فيها في النهاية أكثر شخص لوث يده، وقذف بلائحة أخلاقيات المهنة بعيدا، ليعقد صفقات جد مربحة مع الشياطين، و يصير دمية متحركة تتحكم فيها أيدي سادة الفساد..

في البداية اتّخذت قرار دراسة الصحافة وامتهانها لأُكمل ما بدأه والدي الذي كان صحفيا معروفا أخذ على عاتقه محاربة الفساد، كان يكتب مقالات نارية يهاجم فيها أولئك الذين يتنكرون في عباءة المناضلين لينهبوا ثروات البلد، والدي الذي أعجز الآن عن تذكره جيدا كان يكتب بجرأة و شجاعة وبوجه مكشوف، لكنه بعدما صرح في آخر مقال كتبه أنه يملك معلومات هامة و خطيرة عن قضية من أكبر قضايا الفساد المالي، وأنه مستعد للكشف عن هوية المتورطين فيها، قاموا بتصفيته وهو يغادر مقر الجريدة، ليلتها كان سيمتطي

القطار ليعود إلى مدينتنا الساحلية الصغيرة ويمضي معنا عطلة نهاية الأسبوع قبل أن يقصد مجددا العاصمة التي تتواجد بها الجريدة ليباشر عمله ويفضح الفاسدين، لكن القدر لم يمهله لأنه وجد بانتظاره سيارة سوداء صدمته ليفارق الحياة على الفور، ويعود إلينا جثة هامدة داخل صندوق خشبي باهت..

إلى اليوم لم نتوصل إلى هوية الفاعل. حارس المبنى الذي كان يضم مقر الجريدة والذي عاين الحادث أكد أنه لم يتمكن من رؤية ملامح القاتل وعجز عن قراءة لوحة ترقيم السيارة كذلك لأنها مرت بسرعة جنونية، لكن الجميع وجهوا أصابع الاتهام إلى المتورطين في فضيحة الفساد المالي التي صدر قرار قتله قبل أن ينجح في تسليط الضوء عليها.

مات والدي، لكن أبطال تلك القضية لا يزالون أحياء وطلقاء، بعد رحيل والدي، عرفت أن مهنة المتاعب قد تصبح قاتلة، وأن الصحفي الشريف يشبه محاربا شجاعا يختار أن يقاتل لوحده، دون أن يعي أنه سيدفع حياته بطريقة أو بأخرى ثمنا لدخوله حربا غير متكافئة.

كنت في الخامسة حين عاد والدي محمولًا على الأكتاف، في حين كان شقيقي "غسان" لا يزال رضيعا، لم أفهم ما كان يحدث..

كلما عدت بذاكرتي الضبابية إلى الوراء لا أتذكر سوى ذلك التابوت الذي أخافني كثيرًا، حكت لي والدتي بعد سنوات أنني ركضت لأعانق والدي الذي كنت متعلقة به جدا، لكنني تسمّرت في مكاني بعدما رأيت ذاك الصندوق المقفل على جثته، ربما شعرت ساعتها بأنني لن أراه مجددا، الغريب أنني لم أصرخ ولم أذرف دمعة واحدة رغم أن كل الحاضرين كانوا ينتحبون، ظللت صامتة لشهور بعد رحيله، منزوية في مكتبه الصغير، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي استرجعت فيه قدرتي على النطق وطلبت من والدتي أن نذهب معا لزيارته..

أدين لوالدتي بالكثير، فهي التي ربّتني أنا وشقيقي وكافحت كثيرًا من أجلنا، لم ترغب في أن تلعب دور الضحية وتستفيد من جريمة قتل أبي لتحصل على أي امتياز أو مساعدة، فضّلت أن تعيلنا براتبها على أن تمد يدها طلبا للعون من أحدهم، رغم أن أصدقاء والدي كانوا يؤكدون لها في كل مرة أنهم مستعدون لتلبية جميع طلباتها، أذكر أن صديقا من أصدقائه لمح لها برغبته في أن يتزوجها لكنها رفضت، واختارت أن تظل وفية لذكرى شريك عمرها وحاملة لقب "أرملة شهيد الرأي".

لن أنسى أبدا تلك النظرة التي وجهتها إلي حينما أخبرتها بأنني قررت التوجه إلى العاصمة لأدرس الصحافة، عارضت رغبتي بشدة لأنها خشيت أن ألقى نفس مصير والدي، كانت تريد أن أظل إلى جانبها وأن يكون خياري خيارا آمنا، ربما أرادت أن أصبح أستاذة مثلها، إلا أنني تشبثت بقراري وغادرت مدينتي حاملة معي أحلامي الكبيرة بعد أن اقتنعتْ بأنني لن أتنازل عن حلمي في أن أصير صحفية لأكمل رسالة والدي، توترت علاقتنا منذ ذلك الحين، لكنني نجحت في جعلها فخورة بي بعد أن أصبحت من الكاتبات الصحفيات المميزات، وأصبح لي قراء كثر يتابعون باهتمام التحقيقات ومقالات الرأي التي أكتبها.

جرفتني ذكريات عملي الصحفي معها،وفقدت الإحساس بالزمان و المكان، أصعب شيء هو أن تشعر برغبة كبيرة في النوم، وتخاف من أن تستسلم له كي لا تتحول أحلامك إلى كوابيس تقض مضجعك، بعد أن تطفو ذكرياتك ورغباتك التي دفنتها في لا شعورك لترعبك، ولتذكرك بأنك لن تتخلص منها إلى الأبد، حتى ولو حرصت على تخصيص مقبرة لها في منطقة لا وعيك..

أعتقد أنه يتحتم عليَّ أن أغفو قليلًا قبل أن أستأنف الكتابة، لا يهمني أن أنهض وأنا أتصبب عرقا بعد أن يهاجمني كابوس مفزع، فمن سواي سيرى الكوابيس؟

أسير في زقاق قديم ومُعتم، لست أدري كيف قادتني قدماي المتعبتان إليه، كل ما أعرفه أنني أسير بلا توقف منذ زمن، ودون وجهة محددة..

على عكس العديد من الناس، أحب التيه في دروب لا أعرفها، دروب تشبه إلى حد كبير متاهة بلا بداية و لا نهاية، منذ صغري و أنا عاشقة لاستكشاف المجهول، حتى ولو كان ذاك المجهول خطيرا أو مخيفا، أجده أكثر إثارة وغموضا من الأماكن الموشومة خريطتها في ذاكرتي..

لكن فجأة، يتسرب إليّ خوف لا أحدد مصدره، وينطلق جهاز إنذاري الداخلي ليخبرني بأن ثمة خطبا ما، أنظر حولي باضطراب، لا يوجد شيء منذر بالخطر،أواصل السير بحذر إلى أن أسمع صوتا تتعرف عليه خلاياي السمعية بسرعة البرق، أسمعه يناديني:

– عايدة، عديني بأنك ستكتبينني..

يخفق قلبي بشدة، أبحث عن صاحب الصوت الذي بوسعي أن أعرفه بسهولة مطلقة ولو عن بُعد، أبحث وأبحث، كما تبحث طفلة

ضائعة عن والدها بيأس ممزوج بفزع شديد، لكنني أعجز عن العثور عليه، أكاد

أسقط أرضا من فرط الإعياء، لكن صوته يتناهى إلي من جديد:

– اكتبيني لأحيا بين سطورك، اكتبيني كما ترينني لتخلّديني في كتابك..

أهتف كالمجنونة:

– سأكتبك، أعدك بأنني سأكتب عنك وعن حبك رواية ليست كباقي الروايات، سأغمس ريشتي في دمي لأخط قصة حبنا الذي يسري في أوردتي، فلا حاجة لي بمحبرة، لأن أصدق القصص هي تلك التي نكتبها بحبر دمنا.

يجيبني:

– اكتبي ما شئت، اكتبي لتتحرّري من كل شيء، فالكتابة هي مصحة النسيان بالنسبة للكاتب كما قلت لي ذاتَ حب..

أجيبه بصوت خنقته العَبرات:

– لكنني لن أنساك أبدًا، لأنني أعجز عن صهر جثتك في محرقة النسيان، أريد فقط أن أكون معك يا عُمَر، أينما كنتَ الآن..

لا أسمع إجابته عن رغبتي المستحيلة، على حين غرة، ألمح طيفه في آخر الزقاق، أركض لألحقه، لأعانقه عساي أطفئ نيران أشواقي إليه،

يبتسم لي ابتسامته الساحرة،وقبل أن أرتمي بين أحضانه يتلاشى شبحه وأجدني وحيدة رفقة العَدَم، لست أدري ما الذي يحرضني على النظر إلى المكان الذي كان واقفا فيه قبل أن يتبخر، أستجيب لإحساسي وأنظر، وأصرخ بعدما أرى بقعا كبيرة من الدماء حلّت مكانه، أطلق ساقي للريح و قلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي من فرط الهلع، أنظر خلفي فأجد ظلا أسود يتبعني، ظلا مرعبا تنعكس صورته القاتمة على حيطان الزقاق التي تزيد من هول منظره و تُضَخمه أكثر فأكثر، أستجمع شجاعتي وألتفت نحوه، فأراه قد اتخذ شكلا آدميا، وألمح بريق سكين في يده، أرغب في أن أصرخ لكنني أفقد صوتي، يهمس لي الظل القاتل:

- إياك أن تتسكّعي مجددًا في زقاق الذاكرة..

أستفيق من كابوسي المرعب وأنا أرتعش ذعرًا، كالعادة، أخافني ذاك الظل القاتل الذي يظهر في كل أحلامي، لكنه في النهاية مجرد ظل أسود، لا وجود له سوى في كوابيسي التي يتخذها كمَنْفذ ليتجسد لي، فليذهب الظل اللعين إلى الجحيم، فالأهم هو أنني رأيت طيف حبيبي عُمَرْ..

***

عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرا، لابد من أن والدتي لمحت ضوء غرفتي الذي لم أطفئه إلا في الساعات الأولى من الصباح، لذا تركتني نائمة إلى هذه الساعة بعدما أدركت أنني لا زلت أعاني من الأرق،أسمع طرقا خفيفا على باب الغرفة، إنه شقيقي غسان، يستأذنني قبل أن يدخل وهو يُمسك بين يديه الصحيفة التي كنت أعمل بها، يقبلني بسرعة قبل أن يعطيني الصحيفة قائلا:

– انظري ماذا كتب "سامي" اليوم في عموده..

أنظر إلى الصفحة الأخيرة أوتوماتيكيا، وأُفاجأ حينما أقرأ مقال رئيس التحرير"سامي رمزي"،مقال خصّصه للهجوم على مدير جريدة منافسة، اتهمه فيه بهضم حقوق صحفيي مؤسسته، وبتأجيره قلمه لمن يدفع أكثر، وكذا بحصوله على مبالغ هامة وصفقات مربحة بطرق مشبوهة.

أنهيت القراءة وابتسمت لغسان قبل أن أقول:

– لم أعد أستغرب أي شيء، ففي لعبة الصحافة كل الأشياء جائزة، وفي النهاية البقاء للأقذر، أعتقد أن الصحفيين الشرفاء في طريقهم إلى الاندثار..

أجابني:

– لكن من يدري؟ ربما تتغير قواعد اللعبة ذات يوم ويكون مصير أمثال هؤلاء هو مزبلة التاريخ.

أنهض من سريري دون أن أجيب، ببساطة لأن هذه الحروب الصحفية لم تعد همني، فكل ما يهمني الآن هو أن أحقق رغبة عمر الأخيرة، وأكتبه، لكنني لا أعلم كيف لي أن أكتب عن شخص مثله، وعن حب كحبه.. أصعب شيء بالنسبة للكاتب، هو أن يكتب عن شخص غاب عن دنياه، لكنه لا يزال حيا في ذاكرته القلبية، رافضًا أن يستحيل إلى جثة محترقة، إلى شبح عشقي أو حتى مجرد ذكرى عابرة، ليُسهل مهمة الكاتب في إخضاعه للتشريح الأدبي وتحويله إلى بطل ورقي..

أفكر في أن أتركه يتحكم في خيوط القصة، ففي الواقع، هو البطل، في حين أنني لست سوى الراوية، لذا يتعين علي أن أدعه يكتبني، ويكتب هذه الرواية كما يريد..

أسمع غسان يخاطبني قائلا:

– ما بك شاردة؟ هل أزعجك المقال إلى هذا الحد؟

أعانقه قائلة:

– أبدا عزيزي، لَمَ سأنزعج وأنا أعرف الوجه الحقيقي لسامي جيدا، إنه يكتب عن أشياء غير مقتنع بها، ولا يطبقها في الواقع، كل ما في الأمر أنني أفكر في روايتي التي يبدو لي أحيانًا أنها لن تكتمل يوما..

– "كتابة الرواية عمل مستمر" كما قال "جون إيرفنغ "، ما يحدث لك أمر طبيعي جدا، إنه هاجس الكمال الذي يُقيد قلمك، تريدين أن تخرجي إلى الوجود عملا أدبيا كاملا ومختلفا، وهذه المشاريع الأدبية الكبيرة كمشروع روايتك تحتاج إلى كثير من الصبر والجهد، لذا لا تقلقي، ستكتمل هذه الرواية حتما..

تدخل والدتي إلى الغرفة وتدعوني إلى تناول الإفطار، أُلقي عليها التحية الصباحية وأُقبّلها قبل أن أقول لها إنني لست جائعة وأحتاج فقط إلى فنجان قهوة، تُصر علي إلى أن أعدها بأنني سأتناول وجبة الغداء معها ومع شقيقي، تغادر الغرفة بعد أن تطلب منا مرافقتها إلى المطبخ من أجل مساعدتها، نمتثل لأمرها ونتبعها، قبل أن أغادر غرفتي أنظر إلى الصحيفة وأفكر في أن أفضل شيء حصل لي أثناء اشتغالي بها هو تعرفي على سيد قلبي عمر..

***

لا زال يوم تعرفي عليه منقوشا في ذاكرتي، لكن كثيرًا ما تكون الذاكرة قاتلة، تترصّدنا كقاتل مأجور في زوايا النسيان المظلمة، وتجعلنا نسترجع رغما عنا ذكريات خلنا بسذاجة أننا قد حذفناها من شريط ذاكرتنا، ذكريات ما عادت لنا منذ زمن، إلا أننا نستعيدها بأدق تفاصيلها ونعذب أنفسنا عبر استحضارها بمازوشية مطلقة..

لكن لا يهمني أن أنزف وأحس بأقصى درجات الألم كلما سرت في دروب الذاكرة المتشعبة، فما يهمني حقا هو أن تظل ذكراه حية بداخلي، وأن يبقى طيفه العشقي عالقا بين ثنايا روحي، يراودني لأكتبه، ولهذا سأُجابه النسيان بالذاكرة..

في ذلك المساء الربيعي، عدت إلى شقتي الصغيرة قادمة من عملي، كنت متعبة بعد يوم طويل وشاق في الجريدة، لذا ارتأيت أن أرتاح قليلا قبل أن أكمل تحقيقي حول جرائم الأصول، فجأة تذكرت أنه علي أن أتحقّق من بريدي الإلكتروني المهني لأرى إن كنت قد توصلت برسائل من القراء ردا على مقالي الذي نُشر في عدد ذلك اليوم، وجدت العديد من الرسائل في علبتي،كان مرسلوها يُثنون علي ويمدحون قلمي الحر ويؤيدون كل ما ورد في المقال، غمرتني السعادة لأن رسالتي وصلت ولأن المقال نال صدى فاق توقعاتي، شرعت في الإجابة على الرسائل الواحدة تلو الأخرى، إلى أن لمحت إشعارا يخبرني بأنني توصلت للتو برسالة جديدة، فتحتها دون أن أدري ساعتها أنني سأفتح معها متراس قلبي:

- "مساء النور أستاذة عايدة،

أنا أتابع كتاباتك المميزة و تحقيقاتك الهامة منذ مدة لا يستهان بها، وبصراحة أجدك من أكثر الصحفيات تميزا في مشهدنا الإعلامي، أود أن أشكرك على شجاعتك الكبيرة وجرأتك اللتين تجلتا من خلال مقالك لليوم، كما أود أن أخبرك بأنني قرأت ما كتبته في نهاية الأسبوع عن ذاك السفاح الذي يروع حاليا ساكنة مدينة البيضاء والمدن المجاورة، ووجدت أن تخميناتك واستنتاجاتك مبكرة جدا بما أننا لم نتوصل بعد إلى معطيات كافية لتقودنا إلى تحديد هوية هذا القاتل، لكنني لا أنكر أن تخميناتك راقتني وجعلتني أفكر في احتمال كونها صائبة. بالمناسبة، أنا قريب جدا من هذه القضية بحكم عملي، ومستعد لمساعدتك فيها و في قضايا أخرى مشابهة إذا ما أردت ذلك، ستجدين رقم هاتفي الشخصي أسفل الرسالة، تحياتي.

قارئك الوفي: عمر."

***

ظللت أفكر قليلًا في هوية عمر، وأتساءل عن مدى قربه من قضية السفاح الذي حير الرأي العام، إلى أن خلصت إلى أنه من الوارد جدا أن يكون عمر هذا من فريق التحقيق في هذه القضية المروعة، بحكم عملي في الصحافة، أعرف تمام المعرفة أن التجاذب والتعاون بين السلطتين الثالثة والرابعة من أكثر التعاونات المثمرة،لذا على الصحفي الذي يرغب في إنجاز تحقيقات مثيرة والحصول على معلومات سرية أن تكون لديه مصادر موثوقة في السلطة الثالثة، و بما أنني أشتغل في قسم الحوادث، كانت لدي صلة وثيقة بعدة مصادر مماثلة، لكنني لم أفهم ما الذي شدّني إلى عمر بالتحديد، أهو فضولي الصحفي، أم فضولي النسائي، أم هما معا؟ كل ما أعرفه أنني شعرت ساعتها برغبة لا تقاوم في التحدث معه والتعرف عليه أكثر،ربما لأن الغموض يثيرني والأحجيات تستهويني..خَطَرَ في بالي أنه قد يكون من أولئك المعجبين الذين يعتبرون الكاتبة الصحفية ملكا مشاعا ويرغبون في التحايل عليها بشتى الطرق فقط من أجل التحدث إليها أو الظفر بموعد معها،

لكن من خلال رسالته لم يكن يبدو أنه من هذه النوعية، إذن، ما المانع في أن أمارس لعبة اكتشاف المجهول إلى نهايتها؟

أجبته على رسالته وشكرته على إطرائه وكذا على عرضه السخي قائلة إنه يسعدني أن أتعاون معه،

ووعدته بأنني سأتصل به عما قريب، أغلقت حاسوبي وعدت إلى الانشغال بتحقيقي الدموي، تعبت نفسيا من الجرائم المرعبة ومن أنهار الدماء المتدفقة ومن وحشية القتلة، إلى اليوم، لا زالت تلك الصور البشعة وتلك القصص المخيفة محفورة في عقلي الباطن ولا زلت أعاني نفسيا، أحيانًا أرى هلاوس يقشعر لها بدني، أرى ضحايا تلك الجرائم الذين نشرنا صورهم في الجريدة يركضون خلفي بأجسادهم الدامية وأعينهم المحاطة بدوائر سوداء هائلة، ربما لأنني إنسانة هشة و حساسة جدا،وربما لأن بعض تلك الجرائم لم تحل وقُيدت ضد مجهول، وبعضها لم ينل مرتكبوها العقوبات المستحقة، لكن ما ذنبي أنا؟ لماذا علي أن أعيش وسط الأشباح إلى ما لا نهاية..؟

وحده شبح عمر لا يخيفني، لذا سأستمر في ممارسة طقوس استحضاره، كتابة..

***

وعدته بأن أكتبه، لكن أحيانًا تصير اللغة قاصرة عن وصف شخص خلف مروره السريع في حياتنا أثرا يصعب أن يمحوه أي شيء، حتى مضاد الذاكرة، السلاح الأعتى والأكثر طلبا في العالم: النسيان..

أنا الكاتبة التي يشهد لها الجميع بقدرها الفائقة على التقاط أصغر التفاصيل من أجل الكتابة عنها ووصفها بدقة لا متناهية إلى حد أن البعض يجزم بأنه يستطيع رؤية كلماها مجسدة تنبض بالحياة وتقفز من بين سطور كتاباها، أجدني عاجزة عن الكتابة عنه هو.

من سخرية القدر أننا نحن - معشر الكُتاب - نُجيد الكتابة عن أولئك الناس الذين أحببناهم قبل أن يتحول ذاك الحب إلى كراهية تجعلهم في نظرنا مجرد مشاريع موتى مرشحين لأن نغتالهم وندفنهم بين نصوصنا، ربما لأن بداخل كل كاتب قاتلا من نوع خاص، يجعل من كتاباته مسرحا لجرائمه الأدبية، لست أدري، ما أنا متأكدة منه هو

أنني أواجه صعوبة بالغة في تحويله إلى بطل ورقي، أنا الأنثى المهووسة بالجثث والمقابر كما لقبني ذاتَ ذكرى بعيدة، لا أستطيع إقباره بين دفتي كتاب، لأنه لا يزال حيا يتنفس في ذاكرة خلايا قلبي..

في البدء، كان هُوَ..

ذاك الغريب الغامض الذي اقتحم علبة رسائلي، ليثير بداخلي زوابع من الأحاسيس المبهمة، أحاسيس حرضتني على أن أتصل به بعد يومين على مراسلته لي لأكتشف هويته، ولأسمع صوته.

اتصلت به فور مغادرتي لمقر الجريدة، رن الهاتف طويلا إلى أن كدت أيأس من رده، لكنه فاجأني بالرد بعدما أوشكت أن أنهي مكالمة اعتقدت أنها لن تتم، كان صوته يشبهه إلى حد كبير.. غامضا، ساحرا ومثيرا مثله تماما، تحدث معي باحترام ولطف بالغين قبل أن يعرف هويتي، وكأنه كان ينتظر مكالمتي، لم يتفاجأ عندما أخبرته بأنني أنا المتصلة، كانت دهشتي كبيرة حينما قال:

– كنت أعلم أن فضولك الصحفي سيجبرك على الاتصال بي، أنا جد مسرور لأن الفرصة قد سنحت لي أخيرًا لأتكلم مع كاتبة صحفية بحجمك، صحفية – إنسانة أتابع ما تخطه أناملها بشغف..

أخجلتني كلماته، أنا سيدة الكلمات لم تسعفني لغتي لأرد عليه ردا مناسبا، اكتفيت بشكره قبل أن أسأله:

– كتبت لي في رسالتك أنك مستعد لمساعدتي من أجل الحصول على السبق الصحفي في العديد من القضايا بحكم عملك أليس كذلك سيد عمر؟

أجابني بثقة:

– بلى أستاذة عايدة، ستعرفين كل ما ترغبين في معرفته عن طبيعة عملي و عن تلك القضايا عندما نلتقي..

عندما نلتقي! قالها بطريقة توحي بأنه متأكد تماما من أننا سنلتقي حتما، ولَمَ لا ألتقي برجل مثله يبدو أنه لا ينطق بكلمة قبل أن يكون له علم مسبق بنتيجتها..

قلت له:

– لَمَ لا؟يسعدني أن أتعرف عليك سيدي، لكن متى وأين سنلتقي؟

سألني:

– أتعرفين مقهى "النجم الهارب"؟

أجبته:

– طبعا، ذاك المقهى الهادئ والملهم المطل على المحيط..

قال بنفس النبرة الواثقة:

– ستجدينني بانتظارك هناك غدا على الساعة السابعة مساء، أظن أن هذا يناسبك أستاذة.

– أجل، يناسبني جدا، شكرا لك، إلى الملتقى..

أغلقت الخط،ووجدت نفسي أحاول رسم صورة تقريبية في ذهني لعمر، الرجل الغامض، المختلف، والواثق من نفسه، والذي يبدو أنه يجيد قراءتي منذ زمن، إلى الحد الذي جعله يختار أن يمارس معي لعبتي المفضلة التي أُسمّيها: اكتشاف المجهول..

***

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق عندما وصلت إلى مقهى "النجم الهارب"، شرعت أبحث عن عمر الذي لم أكن أعرف ملامحه، غريب كيف يجازف المرء في رحلة بحثه عن المجهول، دون أن يدري حتى إلى أين ستصل رحلته هاته، وفي أية محطة ستتوقف، لم أبحث طويلاً عن رجل لا أعرف عنه شيئا سوى أنه يدعى عمر وأنه مصدر محتمل بوسعه تزويدي بمعلومات عن القضايا التي تدور حولها تحقيقاتي، توقفت عيناي الحائرتان عن البحث حين لمحت شابا ثلاثينيا وسيما يرتدي سترة سوداء، يقف غير بعيد عن مدخل المقهى ويُلوّح لي بيده، أخبرني حدسي النسائي المزدوج بحاستي الصحفية بأنه هو، كان يحمل الكثير من ملامح بطل أحلامي..تقدمت نحوه، صافحني بحرارة قائلا:

– أهلًا أستاذة عايدة، لا تختلفين كثيرًا في الواقع عن صورتك التي ترفقينها مع مقالات رأيك في الجريدة.

رددت عليه بابتسامة مرتبكة،دعاني إلى الدخول إلى المقهى، تبعته، توقف أمام أبعد طاولة عن المدخل، جذب كرسيًا وقال لي مبتسما:

- تفضلي أستاذة، أتمنى أن تروقك طاولتي المفضلة..

جلس أمامي وهو يوجه إلي نظرات اخترقتني، قلت له في محاولة لتخفيف توتري:

- أعجبني اختيارك.. أحببت الإضاءة الخافتة في هذا الركن.

رد ممازحا:

- هذا أفضل، كي لا يتعرف عليك معجبوك الكثر..

ضحكت قبل أن أقول:

- أعتقد أن المشكلة تكمن في الخلط ما بين الإعجاب بمُمتهن الكتابة بناء على ما يخطه قلمه، وبين الإعجاب به كإنسان.

***

قال بثقة:

- لكنني أجد أن كتاباتك تشبهك كثيرًا، لذا ليس هناك مانع في أن يعجب بك قراؤك ككاتبة و كإنسانة على حد سواء..

تساءلت: أين كان هذا الرجل الذي يبدو كما لو أنه قفز من دفتر ملاحظاتي السرية، ذاك الدفتر الذي كثيرًا ما أرسم فيه شخصيات أعمالي الأدبية التي أجهضها عملي الصحفي.

قدم النادل، كان يبدو أنه يعرفه منذ زمن، سأله:

- قهوة سوداء كالعادة أيها "الرئيس" ؟

أجابه:

- لماذا تتجشم عناء طرح سؤال تعرف إجابته مسبقا؟

لم أستطع منع نفسي من الضحك، قهقه النادل وضحك عمر ضحكة ساخرة، كان قد مر وقت طويل على آخر مرة أضحكني فيها

أحدهم، كل الذين أعرفهم وأتعامل معهم لا يجيدون سوى إغراقي في بحر ظلمات الأحزان..

طلبت قهوة سوداء،وما إن انصرف النادل حتى التفت عمر نحوي قائلا باستغراب:

– ظننت أنك لن تغامري بارتشاف كوب قهوة في المساء.

أجبته:

– اعتدت ذلك، إنها تساعدني لأظل مستيقظة في الليل كي أكمل كتابة تحقيقاتي..

نظر إلي طويلا قبل أن يقول:

– صدقًا أشعر بأن بداخلك روائية كبيرة تخنقها الصحفية العملية.

– معك حق.. لطالما حلمت بأن أكون روائية، لكن للأسف عملي كصحفية يشغل كل وقتي، قبل ثلاث سنوات أصدرت روايتي الأولى، وتنبأ لي العديد من الناس بمستقبل إبداعي عظيم، لكنني الآن لا أستطيع الاستمرار في حلمي هذا، لأن الكتابة والصحافة طريقان متوازيان يصعب كثيرًا أن يلتقيا، أعدك بأنني سأهديك نسخة من روايتي الأولى في المرة المقبلة، طبعا إذا لم تكن قد قرأتها من قبل..

***

– للأسف لم أقرأها، سأكون ممتنًا لك إذا أهديتني إياها مزينة بتوقيعك..

– أكيد.. سيد عمر، هل لي أن أتعرف عليك أكثر وأعرف مدى قربك من القضايا التي همني؟

اعتدل في جلسته ثم قال:

– اعذريني أستاذة، أحسست بأنني أعرفك منذ زمن بعيد لذا انجرفت في الحديث معك، أعتقد أن سبب هذا الارتياح راجع إلى كوني أقرأ لك دوما مما جعلني أشعر بأنني قريب منك، أنا "عمر غالب"، أعمل في الشرطة القضائية، أرجح أنك خمنت هذا، كثيرًا ما راودتني فكرة مراسلتك لأن قلمك المميز والمحايد يجذبني، وتحقيقاتك المختلفة تشدني، لكنني كنت أقاوم هذه الفكرة إلى أن صادفت في ذلك اليوم تحقيقك عن السفاح..

استيقظت الصحفية الفضولية الكامنة بداخلي لتسأله:

- هل لي أن أعرف أين وصلت تحقيقاتكم في هذه القضية؟

أجابني:

- لم نتوصل إلى شيء بعد، وسعنا نطاق البحث دون جدوى، أعتقد أن هذا المجرم من أخطر السفاحين في تاريخ الجريمة المعاصر، على الأقل في المغرب، أكبر مشكلة تصادفنا هي أنه حريص جدا، لا يترك خلفه أي شيء، وكأنه لا مرئي، أو فلنقل:

كائن لا بشري..

قلت:

- لكنه ارتكب ثلاث جرائم بشعة إلى حدود اليوم، ويقال إن أي مجرم مهما كان خطيرًا ومتمرسًا، يخطئ حساباته ذات مرة ويخلف في مسرح الجريمة شيئا يدينه.

تنهد، أشعل سيجارة أخذ منها نفسا عميقا وقال:

- بصراحة.. هذا السفاح حير جهازنا، لم يسبق لنا أن صادفنا قضية صعبة كقضيته، فقط لو كان بوسعنا التأكد من دافعه..

سألته:

- هل تعتقد أن للبيدوفيليا علاقة بالأمر؟ هل يريد هذا القاتل أن يحقق العدالة بيديه؟ هل يرغب مثلا في أن يبعث لنا رسالة مفادها أن الأحكام الصادرة في حق مغتصبي الأطفال غير كافية لإحقاق العدالة؟

عقد حاجبيه قليلا وقال:

- ربما.. ما نعرفه حتى الآن هو أنه قد ارتكب ثلاث جرائم وحشية بحق ثلاثة رجال، الأول رب أسرة أربعيني كان يشتغل تاجرا، أدين بسنتين حبسا نافذا في قضية اغتصاب طفل في الثالثة، وكان قد أفرج عنه قبل بضعة أسابيع على الجريمة، الثاني حارس روض للأطفال لم نجد ما يثبت أنه متورط في الاستغلال الجنسي للقاصرين، أما الثالث فهو إمام سابق، قضى ثلاث سنوات في السجن بتهمة استغلال طفلين جنسيا، لم يمض على مغادرته للسجن أزيد من شهر، لنفترض أن البيدوفيليا هي الرابط بين كل هذه الجرائم، ماذا عن الحارس الذي لسنا متأكدين من كونه مغتصب أطفال؟

قلت:

- ماذا لو كان "سفاح الما لا نهاية" من أسرة أحد الأطفال ضحايا الاستغلال الجنسي كما قلت في تحقيقي؟

- وارد جدا، أعجبني تخمينك هذا فعلا، لكن بهذه الطريقة نوسع دائرة الاحتمالات أكثر..

أطرقت قبل أن أسأله:

- ما هو تفسيركم لاختيار السفاح لعلامة الما لا نهاية ليخلفها كتوقيع على أجساد ضحاياه وبالضبط في أسفل ظهورهم؟

- أرجح أنه يريد أن يرسل لنا رسالة لم نستطع فك شيفرتها بعد، لكن أعدك بأنك ستكونين أول من يعرف معنى هذه الرسالة..

نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى الثامنة مساء، صحت لا شعوريا:

- اللعنة.. عليّ أن أكمل التحقيق..

قام من مكانه بسرعة، حاسب النادل وعاد مبتسما، قلت له:

- اعذرني، يجب أن أذهب حالًا..

عرض علي أن يقوم بتوصيلي، وافقت بلا تردد، امتطينا سيارته السوداء، شغل المسجل، وتفاجأت عندما سمعت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، إحدى السيمفونيات المفضلة لدي، لم أكن أعلم من قبل أن رجلا يعيش وسط الأسلحة والجرائم الدموية بوسعه أن يستمتع بالاستماع إلى السيمفونيات وبقراءة المقالات والروايات، تفاجأت أكثر حين قال لي وكأنه قارئ أفكار ضليع:

- " الحق في التناقض من بين حقوق الإنسان التي تم تناسيها" كما قال الرجيم "شارل بودلير"، أليس كذلك أستاذة؟

في هذه اللحظة، وأنا أسترجع قوله هذا، أجدني أطالب ذاكرتي المتعبة، النازفة، القاتلة، بمنحي الحق في النسيان، بمجرد انتهائي من تأبين عمر في روايتي هذه.

مترددة أنا، متأرجحة بين النسيان واللا نسيان..

لكنني أدرك أنني مجبرة على مواصلة لعبة التذكر إلى نهايتها، حتى أنتهي منها، ومنه، وأغادر مغاور الذاكرة بأقل الذكريات الممكنة..

بعد لقائنا الأول،ذاك اللقاء الذي لم يكن كاللقاءات الكلاسيكية، رأيت على مدى يومين كابوسا أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه مفزع، كابوسا تظهر فيه يد ملطخة بالدماء تخرج من العَدم لتغطي أجسادا عارية لرجال بلا ملامح بعلامة الما لا نهاية، استنتجت أن لا وعيي منشغل ومتأثر إلى درجة كبيرة بقضية "سفاح الما لا نهاية"، وما الكوابيس سوى وسيلة مساعدة يستعين بها اللاشعور كي يُصَرف انشغالاته ومخاوفه، لكن رغم ذلك كان لدي إحساس مُبهم يقول إن حصيلة ضحايا هذا السفاح الخطير مرشحة للارتفاع، و أنه سيرتكب جرائم أخرى عما قريب..

غريبة هذه الأحاسيس والتوقعات التي تزور بعض الكُتاب، ربما لأننا كثيرًا ما نقترب من منطقة التجلي، من يدري؟ كل ما أنا متأكدة منه هو أن إحساسي أو فلنقل توقعي قد تحقق..

لم تكن قد مرت سوى ثلاثة أيام على لقائي بعمر حين رن هاتفي في ساعة جد مبكرة من الصباح، قفزت من سريري و التقطت الهاتف بسرعة، وما إن أجبته حتى سمعته يقول:

– لقد ضَرب سفاح الما لا نهاية من جديد، عثرنا قبل قليل على جثة رجل في نهاية عقده الرابع، كانت جثته ملقاة في مطرح للنفايات، الجثة مكبلة وعارية كالجثث التي سبقتها، لا وجود لآثار المقاومة أو للبصمات هذه المرة أيضا، لاحظنا أن السفاح قد تطور، هذه الجريمة أكثر وحشية من سابقاتها فلقد عمد السفاح إلى قطع لسان الضحية، كما أن علامة الما لا نهاية التي خلفها كبصمة على مؤخرته تبدو أكبر..

سألته:

– هل كان القتيل متورطا في جرائم بيدوفيليا؟

سمعت صفارات سيارات الشرطة، رد علي عمر:

– لقد طلبنا الدعم لنمشط المنطقة ككل مرة..أتمنى أن يحالفنا الحظ وأن تكون هذه الجريمة هي الأخيرة، تعبنا يا عايدة.. تعبنا من البحث عن هذا القاتل الحقير الذي يتبخر بعد كل جريمة..

ناداه أحد زملائه فقال لي:

– اعذريني علي أن أذهب حالا.. لم نتوصل بعد إلى شيء يخص الضحية الجديدة، سأوافيك بالمستجدات..

قلت له بلا شعور:

– احترس!

ترى هل كنت أعلم حينها أن قضية "سفاح الما لا نهاية" اللعين ستستترفني وستدمرني؟ وارد جدًّا.. أنا متيقنة فقط من أن رُهاب فقد عمر الذي كان مسيطرا علي طوال تلك الفترة لم يكن من فراغ، وها أنا ذي بعد فقده أكتشف أنني فقدت الكثير مني، واستحلت شبحا، مثله تماما..

***

كيف لي أن أستمر في الكتابة بدمي وحبه يسري فيه؟ والأهم: كيف لي أن ألملم شتاتي وفقده قد أحالني إلى حطام؟

يؤمن معظم الكتاب أننا ندين للجراح بالكثير، فلولاها ما كنا لنطلب اللجوء الأدبي لنكتب ونشفى بعد أن تُمكننا الكتابة من رَتق جروحنا، كثيرون هم الكتاب الذين يستشهدون على علاقة الجراح الغائرة بالكتابة بالقول الشهير لكافكا: " الكتابة انفتاح جرح ما.."، لكنني في هذه اللحظة أتساءل:

كيف للكتابة أن تشفيني وجرحه المستقر في قلبي يأبى أن يبرأ..

أعتقد أن بَتْرَ الذاكرة لعبة خطرة جدا،لعبة قد تنقلب فيها ذاكرتنا علينا، إلا أنني الآن أفكر في أن نَبْشَ الذاكرة من أجل الكتابة عن شبح من أشباح الماضي أخطر بكثير..

سأستل خنجر الكلمات لأنكأ جرح ذاكرتي القلبية، علني أتطهر من ذكرياتي، وأكون في النهاية محظوظة بما يكفي لأصير امرأة بلا ذكريات..

بعدما هاتفني عمر ليخبرني بأن سفاح الما لا نهاية قد أضاف إلى رصيد ضحاياه ضحية جديدة تحمل الترتيب الرابع في جرائمه المتسلسلة، توجهت إلى مقر الجريدة، لم يمنعني انشغالي بالعمل من التوقف عن التفكير في لغز هذا السفاح الذي يبدو كما لو كان يخرج من لا مكان ليسفك دماء ضحاياه،ويعود بعدها للاختفاء وكأنه كائن شفاف.

كتبت مقال متابعة لهذا الموضوع عنونته ب: " هل ستستمر جرائم سفاح الما لا نهاية إلى الأبد؟"، خلال مشواري الصحفي القصير نوعا ما، تابعت العديد من القضايا الصعبة و الجرائم المعقدة، لكن لم يسبق أن صادفت قضية من هذا النوع، وسفاحًا خطيرًا كسفاح المالانهاية الذي عجزت عن تحديد ماهيته..

قضيت اليوم بأكمله وأنا أفكر في هذه القضية،كانت تحذوني رغبة كبيرة في الاتصال بعمر لكنني لم أرد أن أزعجه، أخيرًا استسلمت لرغبتي وركبت رقمه، رن هاتفه طويلا قبل أن يجيبني ويخبرني بأنه منشغل جدا لذا لم يتصل بي، طلبت منه أن نلتقي، وافق على طلبي وعرض علي أن نلتقي على الساعة السابعة مساء في مقهى "النجم الهارب" الذي صار مسرح لقاءاتنا.

وجدته بانتظاري، صافحته وجلست أمامه، نظر إلي طويلا قبل أن يبتسم و يقول ممازحا:

– مدين أنا للسفاح اللعين الذي لولا جرائمه الوحشية ما كنت لتطلبي لقائي..

قلت:

– لو كنت تعلم أنني لا ألتقي سوى بالأشخاص الذين يثيرون اهتمامي لما قلت جملتك الشريرة هاته!

سألني و في عينيه بريق:

– ترى هل أثير اهتمامك فعلا ليس فقط كمصدر بل كشخص؟

أجبته بمكر نسائي:

– لا أخفيك أنه لدي العديد من المصادر لكنك مختلف ومميز جدا في نظري..

وجه إلي نظرة عجزت عن تفسيرها، نظرة تختزل كل المعاني، قبل أن يقول:

– إذن أنا محظوظ للغاية كونك تجدينني مميزا ومختلفا عن الباقين، على ذكر الاختلاف، أكاد أجزم لك بأن ذاك المعتوه سفاح الما لا نهاية مختلف جدا عن كل القتلة الذين صادفتهم في حياتي..

بجريمته هذه، أكد لنا أن أسلوبه في توقيع جرائمه يتطور مرة بعد مرة، كما أكد لنا أن لجرائمه هذه ارتباطا وثيقا بالبيدوفيليا، لكن السؤال هو:

هل ممكن أن يكون من أهالي ضحايا هذه الجرائم؟

ولو كان كذلك، لماذا لم يكتف بقتل المتورط في استغلال ابنه أو ابنته أو شقيقه مثلا، واستمر في معاقبة كل من لديه ضلوع في مثل هذه القضايا.

والأهم: لَمَ قتل حارس روض الأطفال الذي لم نجد أي شكاية ضده تتهمه باستغلال الأطفال، هل قتله فقط لأنه اشتبه فيه، أم أن هناك سرا وراء جريمته هذه؟

سألته:

- هل توصلتم إلى أية معطيات جديدة تخص الضحية الرابعة التي عثرتم عليها في مطرح للنفايات في الساعات الأولى من صباح اليوم؟

فاجأني عندما قال:

- الضحية الرابعة هو رجل تعليم في التاسعة والأربعين، متزوج وأب لطفلين، سبق أن تقدمت أم إحدى تلميذاته الصغيرات بشكاية في حقه تتهمه فيها بالاختلاء بابنتها خلال وقت الاستراحة ليمارس عليها الجنس سطحيا، لكن لم يثبت عليه شيء واستمر في عمله بعدما

وقف زملاؤه وإدارة المدرسة في صفه، زاعمين أنه يدرس منذ أزيد من عشرين سنة ولم يسبق أن ارتكب شيئا من هذا القبيل، واصفين الشكاية بالكيدية.

مد لي شيئا تحت الطاولة، أمسكته، كانت صورة لجثة الضحية الرابعة، كالضحايا الذين سبقوه، عمد السفاح إلى ذبحه، وضعت الصورة في يده بسرعة وقلت:

– أرجح أن هذا السفاح – المعاقب ينتقم من كل شخص تسول له نفسه استباحة أجساد الصغار، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو:

هل تعني علامة الما لا نهاية التي يضعها على جثت ضحاياه أن انتقامه من المغتصبين لن ينتهي أبدا؟

فكر قليلا وقال:

– ربما هذا ما يعنيه.. تعجبني طريقة تفكيرك وتخميناتك..

– لكن لماذا عمد إلى قطع لسان هذه الضحية مع العلم أنه في جرائمه السابقة لم يفعل شيئا مماثلا، أيكون قطع لسان المعلم إحالة على قانون الصمت الذي التزم به جميع العاملين في المدرسة وألزموا به كذلك الأم المشتكية وطفلتها ضحية الاستغلال الجنسي؟

نظر إليّ بإعجاب كبير ثم صفق قائلًا:

– لو كان شريكي في التحقيق مثلك لكنا ألقينا القبض على هذا السفاح منذ أول جريمة، بما أن مجرى الحديث تحول إليك، أين كتابك الأول الذي وعدتني بإهدائه إلي؟

كانت لديه قدرة مدهشة على الربط بين أشياء مختلفة، وعلى تغيير حديث بحديث آخر يبدو بعيدا عنه كل البعد، وضعت يدي على رأسي و أجبته:

– اعذرني لقد نسيت، لكن اطمئن فنسختك موجودة في مكان قريب..

– أين؟

قلت بتردد:

– في بيتي.. ما رأيك أن نمر معا لأعطيك نسختك؟

قمنا معًا وصعدنا على متن السيارة، كنت أعي جيدا أنني لأول مرة سأخرق قانوني الداخلي وأستضيف رجلًا في بيتي الصغير، لكنني ربما تعمدت أن أتركه يقتحم مملكتي السرية..

في الطريق قلت له:

– أتدري.. أنت تجعلني أخرق قانوني..

رد علي مبتسما:

– هناك قاعدة عامة تقول: " وُجدت القوانين ليتم خرقها.."

أوقف سيارته أمام مدخل المبنى الذي أقطن به وكأنه قد وشم عنواني في ذاكرته البصرية، قبل أن

أترجل من السيارة، سألني:

- كم رقم شقتك؟

أجبته:

- الشقة رقم 7

قال:

- دقائق، وألتحق بكِ..

صعدت الدرج وقلبي يخفق بشدة، لم أكن أدرك أية حماقة أنا مقبلة على ارتكابها، اليوم، أعلم أنها كانت أقدم حماقة في تاريخ الجنون البشري.. حماقة الوقوع في حب شخص لا نفكر أبدا في احتمال فقدنا إياه في رمشة عين..

ترى لماذا نقول: الوقوع في الحب، ألأننا عندما نسقط في حباله يكاد يكون نهوضنا من تلك السقطة بأقل الجراح القلبية شبه مستحيل؟

أدرت المفتاح في الباب بيد مرتعشة، دخلت و تركته مواربا، بعد دقائق تبعني، أقفل الباب وراءه و وقف يتأمل أثاثي البسيط، دعوته إلى الجلوس في البهو، جلس و قال:

– بيتك صغير ودافئ، وأثاثك به لمسة إبداعية واضحة، أتدرين؟ منذ زمن وأنا أرغب في أن أرى كيف يبدو بيت مبدعة بحجمك، لكن بعض الأماني نحسبها غير قابلة للتحقق..

استأذنته لأتوجه إلى المطبخ،أحضرت فنجاني قهوة وبعض الكعك، وعدت لأجلس بالقرب منه، أخذت رشفة من القهوة وقلت له:

– أتعلم أنك تعرفني أكثر مما أعرفك؟

ضحك قائلا:

– لا بد من أن نعرف الكثير عن شخصية عامة مثلك..

قلت:

– كلامك كثير علي.. لا أعتبر نفسي شخصية عامة ولا إنسانة فوق العادة.

- بالنسبة إلي ما يحدد ما أنت عليه فعلا هو رأي الآخر، اعتبريني ناطقا رسميا بلسان جمهورك الكبير..

مازحته قائلة:

- كلماتك هاته ستجعلني أصاب بأعراض الغرور..

أمسك بلجام الحديث مرة أخرى كعادته ليسألني:

- أين نسختي من مولودك الإبداعي الأول؟

قمت وأخذها من مكتبي ثم عدت ووضعتها بين يديه، تأمل الغلاف طويلا قبل أن يلاحظ:

- لوحة الغلاف مميزة، لكن لماذا يعلو البياض رأس بطلتك؟ كان بوسع الرسام أن يختار شيئا أكثر وضوحا ليرمز به إلى حالتها.

أجبته:

- اللون الأبيض دلالة على أن ذاكرتها صارت ناصعة البياض وفارغة تماما، كما لو أنها صفحة عذراء..

لم يبدُ لي أنه قد اقتنع بتفسيري، نظر إلى ظهر الغلاف و شرع في قراءة المقتطف:

- "صحيح أنها كثيرًا ما تمنت أن تنسى ماضيها، أن تنسى أوجاعها، أن تنسى حبيبها الأول الذي خذلها وعبر مع أنثى أخرى نهر النسيان، صحيح أنها كانت تتمنى لو أنها تعود طفلة بذاكرة

لم تبصمها بعد الصدمات المتعاقبة. ولم تُسقط رياح الحياة العاتية سلة أحلامها لترتطم بأرض المُحال القاحلة. طفلة لم تشهد اغتيال أمانيها أمامها، تلك الأماني القديمة التي أدرجتها الدنيا في قائمة: ما لن يتحقق أبدًا..

لكن أمنيتها في الحصول على بطاقة النسيان قد تحققت أخيرًا، والمفارقة الكبرى هي أنها لم تنس فقط ماضيها المؤلم، بل نسيت حاضرها وأجندتها المستقبلية كذلك، بل إنها نسيت أيضا متى استوطن النسيان ذاكرتها ليمحو تاريخها.."

صفق طويلًا وقال:

- أحيانًا نحتمي من الذاكرة بالنسيان دون أن نعي أنه من الوارد جدا أن تنقلب علينا ذاكرتنا ذات يوم إلى درجة أنها قد تتحالف مع النسيان ضدنا..

- ممكن، كل ما أعرفه عن بطلتي الخيالية أنها كانت تتمنى في لحظات يأسها أن تنسى تاريخ وجعها، لكن أمنيتها تحققت بشكل معكوس وأصيبت بمرض "ألزهايمر" إلى حد أنها نسيت من تكون فعلا..

سألني:

- ألن تكتبي لي إهداء خاصا؟

– طبعًا سأكتب لك إهداء لأنني أؤمن بأن كتابا بلا إهداء هو كتاب بلا روح..

كتبت له:

"إلى العزيز عمر:

أهديك كتابي "تاريخ النسيان" كي لا تنسى..

مودتي."

تلقفه من يدي، قرأ الإهداء بسرعة ثم قال مبتسما:

– لن أنسى.. أعدك..

وضع الكتاب على الطاولة التي أمامه، تأملني ثم سألني:

– لماذا بيتك هادىء جدا؟ أعلم أن الكُتاب يعشقون الموسيقى بل ويستعينون بها من أجل الكتابة.

أجبته:

– معك حق، هل تريد أن أشغل قارىء الموسيقى؟

لم يرد على سؤالي، أدخل يده في جيب سترته ثم أعطاني قرصا مدمجا قائلا:

– قبل أن ألتحق بك في شقتك الجميلة بحثت في علبة القفازات بسيارتي عن شيء أهديك إياه، ووجدت أن هذا القرص هو أنسب هدية لمبدعة مثلك، أتمنى أن يروقك..

شكرته بابتسامة،وشغّلت القرص، انبعثت منه رائعة السيدة فيروز "وحدن":

- "وحدن بيبقوا.. مثل زهر البيلسان.. وحدهن..بيقطفوا اوراق الزمان.."

قال وهو يبتسم:

- أحب هذه الأغنية كثيرًا، أجدها تُعَبر عني إلى حد ما..

آه، فقط لو علم ساعتها أن مصيري بعده سيكون هو التيه في غابة الوحدة..

جلست قربه، وقلت:

- لم تحكِ لي شيئًا عنك..

قال:

- لَم لا أدعك تكتشفيني؟

ضحكت وقلت:

- لكن هذا ليس عادلا، أنت تعرف عني العديد من الأشياء، في حين أنني لا أعرف عنك إلا القليل..

صمت قليلا ثم قال:

- عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء.. لا أرى سوى مشاهد ضبابية لطفولة سعيدة مرت بسرعة صاروخية، والدي كان إداريا، كان طيبا جدا، في حين أن والدتي كانت تعمل في مكتب للمحاسبة، لم نكن ميسورين لكننا كنا سعداء نحن الثلاثة، حينما كنت في السابعة، كنا عائدين من آخر عطلة قضيناها معا، فجأة اصطدمت سيارة بسيارة والدي الذي توفي على الفور، في حين أن والدتي توفيت بعد نقلها إلى المستشفى..

توقف عن السرد، أخذ رشفة ماء،اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه وقلت:

- آسفة.. لم أكن أعلم..

قاطعني:

- لا داعي للاعتذار عزيزتي، أؤمن بأنه لا يمكننا أن نسافر في الزمن لنحاول إصلاح لحظة قصيرة دمرت حياتنا بالكامل، كما أؤمن بأن طَمْرَ الذكريات السيئة مستحيل، لأن الذكريات السيئة هي التي تنطبع في ذاكرتنا كوشم يصعب محوه، في النهاية هذه الذكريات هي التي تجعل منا الأشخاص الذين هم نحن، فما نحن سوى مجموعة صدمات، خيبات، انكسارات، خسارات.. أعتقد أنه بقدر ما تصنعنا الحياة فإن للذاكرة دورا مهما كذلك في بناء شخصياتنا..

سألته الصحفية الكامنة بداخلي:

- وماذا حصل لك بعد رحيل والديك؟

- بقيت في حالة غيبوبة لمدة شهر بسبب تعرضي لصدمة في الرأس،لكن جسدي كان قويا، أفقت من الغيبوبة وانتقلت للعيش مع جدتي لوالدتي التي ربتني ورعتني وبفضلها تمكنت من إتمام دراستي ومن تحقيق حلمي في أن أصير رجل أمن.

- هل لا زلت تقيم مع جدتك؟

- جدتي رحلت قبل عامين، حاليا أعيش مع الوحدة التي صارت رفيقتي.

قلت بحزن:

- الفقد و الوحدة قاسمان مشتركان بيننا..

أجابني:

- أدرك ذلك، بدورك فقدت والدك الصحفي الشريف إدريس عابد بعدما اغتاله أباطرة الفساد سنة **1994**.

نظرت إلى عينيه الجذابتين طويلا وقلت:

- أرأيت؟ قلت لك إنك تعرف عني الكثير..

اقترب مني وهمس في أذني:

- لأنني معجب منذ زمن بظاهرة صحفية تدعى عايدة عابد..

لفحتني حرارة أنفاسه، اعتقدت لوهلة أنه سيقبلني لكنه لم يفعل، اعتدل في جلسته، نظر إلى ساعته وقال:

– تأخر الوقت.. علي أن أذهب، شكرا لك سيدتي على إهدائك كتابك لي، لأول مرة أحصل على كتاب مُوقع من طرف كاتبه..

قلت دون أن أشعر:

– لكننا سنلتقي مجددا أليس كذلك؟

لم يجبني، عدل سترته وتوجه نحو الباب، قبل أن يغادر طبع على جبيني قبلة حارة.

أتعبتني ذاكرتي التي تشبه رحالة يأبى التوقف،هذه الذاكرة الكيدية التي ترفض أن تدعني وشأني قبل أن تعيدني إلى بلاد الذكريات المنسية..

علي أن أتحكم أكثر في شريط ذكرياتي إلى أن أنهيها قبل أن تُنهيني..

فجأة.. أجدني قد عدت إلى بيتي الصغير الذي هجرته بعد رحيل عمر لأنني لم أعد قادرة على العيش في مكان أتعرض فيه لقصف الذكريات، كم أكره ذاكرة الأمكنة! تلك الذاكرة التي تشبه قاذفة صواريخ، فقط لو أعرف كيف عدت إلى هذا البيت الذي استحال بعده إلى بيت رعب..

لا أتذكر الطريق الذي سلكته لأعود إلى هذا المكان الذي اغتيلت فيه أحلامي، أعبر الردهة الباردة، ألمح نقط دم على طول الردهة، أستمر في السير وأنا أرتجف، أتبع قطرات الدم التي تتسع تدريجيا إلى أن أصل إلى الحمام، أفتح بابه المغلق بيدي المرتعشة، أكاد أفقد وعيي بعد رؤيتي للمغطس ممتلئًا عن آخره بالدماء، ألتفت لأتأكد من أنني لوحدي، لا أجد أحدا، بغتة أرى حروفا تنز دما تعلو مرآتي، أقترب من المرآة بخطى مضطربة لأعي أن أحدهم ترك لي رسالة كتبها بالدم، يخفق قلبي بوَجل، إنه ذاك الظل القاتل اللعين:

- "كل أحبائك رحلوا.. لذا تقتاتين على ذكرياتك المؤلمة وتحترفين استثمار خسائرك المتعاقبة.. استمري في مقارعة الخسارة بالكتابة لأنه لم يعد لديك ما تخسرينه.."

أريد أن أركض وأنا أصرخ وأبكي بصوت عال لعلي أتحرر وأتخلص من هذا الظل الأسود الذي يتبعني كظلي، لكنني أبقى جاثمة في مكاني كشجرة واهنة يسري الموت في جذورها شيئا فشيئا.. أجمع أوراقي المتساقطة وأنهض،أقترب من المغطس الدموي وأمد يدي محاولة إفراغه، أصرخ بكل ما أوتيت من قوة بعدما تمسك يد قوية يدي التي تحاول إفراغ المغطس، تظهر لي تلك اليد الملطخة بالدماء من تحت المياه الدامية، أبتعد بهلع، أرى انعكاس الطيف القاتم في المرآة، اختفت الكتابة التي كانت تعلوها لتحل محلها جملة أخرى:

- " أنا عتمة الذاكرة.. أنا حاصد الأرواح المذنبة.."

أرغب في فتح الباب لأهرب من الظل القاتل لكنه موصد كما لو أنه أغلق بأقفال عتيدة، يقترب مني الظل هامسا:

- "دعيني أكتب أحلامك.."

أصحو على صوت المنبه وأنا أرتجف كطائر يحتضر، إنه مجرد كابوس آخر، منذ زمن اعتدت العيش داخل كوابيس حقيقية جدا، يبدو أن رواسب عقلي الباطن قد حكمت علي بالبقاء رهينة دائرة الرعب إلى ما لا نهاية..

من قال إنه يمكننا أن نحتمي من الذاكرة بالنوم لا يدرك حتما أن قاتل الأحلام يتربص بنا عند أول مفترق حلم..

أنهض من سريري لأبحث عن القرص المدمج الذي أهداني إياه حلمي الذي لم يكتمل، أشغل القرص لأستمع إلى أغنيته " وحدن" في صحة الوجع، لأول مرة أدرك أن فقده قد خلف في قلبي جراحا أرجح أن نزفها لن يتوقف قبل أن يوقف نبض قلبي..

الآن فقط فهمت سر اختياره لهذه الأغنية بالذات.. لأن بها جرعة مرعبة من الوحدة والفقد.. هل تكهن حينها بأنه سيخلفني وحيدة، فارغة إلا من ذكريات؟

- "مرقوا.. فلوا بقيت ع بابي..لحالي.."

أنا كاتبة تقف على قمة جبل الخسائر، خسائر دفعتها ضريبة للإبداع علني أصل في الأخير إلى نهر الخلود الأدبي، فمن يدري، ربما في قانون الإبداع يربح أخيرًا من خسر كثيرًا..

أنا كاتبة تشبه لاعب الروليت الروسي الذي لم يعد لديه ما يخسره، لذا سأكمل روايتي – رهاني إلى النهاية..

في ذلك الصباح الربيعي الضبابي، كنت أستعد لمغادرة بيتي لأتوجه إلى مكتبي بالجريدة عندما رن هاتفي، كان عمر هو المتصل:

– أهلا عايدة، لدي خبر سيء، لقد وقع "سفاح الما لا نهاية" جريمته الخامسة، جريمة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها شنيعة جدا.. في هذه المرة، سَمل السفاح عيني الضحية.

سألته:

– من الضحية؟

أجابني:

– الضحية الخامسة رجل عازب في منتصف عقده الرابع، كان يشتغل قيد حياته بميتم، سيرته حسنة بين الناس إلا أنه سبق وكان موضوع شكاية استغلال جنسي وصفها العديدون بالكيدية، كان المشتكي شابا في الثامنة عشرة، نزيل سابق بالميتم، وضع شكايته أسابيع بعد مغادرته لأسوار دار الرعاية هذه، لكن إفادته والشهادة الطبية التي قدمها والتي تثبت أنه قد تعرض لهتك العرض منذ زمن لم تكونا كافيتين لإدانة الضحية، بعد أن أكد شهود من داخل المؤسسة أن الشاب المشتكي كان معروفا بين أصدقائه بشذوذه الجنسي و أنه أراد فقط أن يبتز الراحل ليحصل على المال، وفعلا تم التوصل إلى تسوية مادية بين الطرفين ليختفي الشاب بعدها..

قلت:

– وماذا يقول حدسك البوليسي؟

أجاب:

– بصراحة.. أعتقد أن القتيل كان مذنبا، ومن الوارد جدا أن يكون هناك رقم أسود من ضحاياه الذين التزموا الصمت، ضحايا كان يفرغ كبته الجنسي في أجسادها الصغيرة التي كان يسهل عليه الوصول إليها بحكم عمله، كما أرجح أن اليتيم الذي اتهمه باغتصابه لم يقرر وضع شكايته لدى المصلحة الأمنية إلا بعد مغادرته للميتم

بسبب خوفه من البطش،إنها مجرد فرضيات لكنني أخبرك بأننا أصدرنا مذكرة بحث وطنية في حق هذا اليتيم.

تساءلت باستغراب:

- هل تشكون في أن اليتيم قد يكون هو قاتل الما لا نهاية؟

رد علي قائلا:

- في مثل هذه القضية كل الاحتمالات واردة..

قلت:

- إحساسي يخبرني بأنه ليس هو السفاح وإلا فلماذا ترك مغتصبه حيا يرزق طوال هذا الوقت؟ كان من المفترض أن يبدأ بقطف روحه.

سكت لبرهة ثم قال:

- قد تكونين محقة، لكن في عُرف القتلة المتسلسلين كثيرًا ما يُترك المذنب الأكبر إلى النهاية ليكون الضحية الختامية، عايدة، يجب أن أقصد مكتبي الآن، سأهاتفك في المساء.

قصدت الجريدة ورأسي مزدحم بالتساؤلات،لكن شيئا ما بداخلي كان يؤكد لي أن اليتيم ليس بالمتهم المثالي، وبالفعل لم يكن هو، فبعد أيام تم العثور عليه في إحدى المدن المعروفة بالسياحة الجنسية ميتا بسبب جرعة مفرطة من المخدرات الصلبة، وبعدها ببضعة أسابيع، عاد سفاح الما لا نهاية، القاتل غير المرئي ليتحدى الجميع عن طريق توقيعه لجريمته السادسة.

فقط لو كان سفاح الما لا نهاية هو اليتيم، لكانت هذه القضية اللعينة قد أقفلت ساعتها، وما كنت لأخسر عمر..

كم كان الظل القاتل محقا حين قال لي في كابوسي إنه لم يعد لدي ما أخسره، لأن خساريّ لعمر هي الأفدح بين كل الخسارات..

***

قضيت اليوم الذي وقع فيه سفاح الما لا نهاية جريمته الخامسة شاردة، يومها فكرت في احتمال يقول إن القاتل قد يكون ضحية من ضحايا الاستغلال الجنسي جعلته العاهة النفسية التي ولدها بداخله هذا الاعتداء الشنيع الذي اغتال براءته يصبح مجرما، لطالما وجدت نظرية "لومبروزو" ضعيفة وقاصرة، لأنني لا أعتقد أن هناك فعلا مجرمين بالفطرة، بل أظن أن العديد من الأشخاص يسلكون طريق الجريمة بسبب ما تفعله بهم الحياة القاسية، المجحفة. أجريت بحثا سريعا في الانترنت عن البيدوفيليا وعن الآثار النفسية – البَعدية التي تخلفها هذه الجريمة على الطفل – الضحية،لم أجد الكثير من المعلومات حول هذه الظاهرة الخطيرة التي بدأت تؤرق المجتمعات العربية والغربية على حد سواء بسبب انتشارها في العقدين الأخيرين، رغم أن الجذور التاريخية لهذه الظاهرة تعود إلى ما قبل التاريخ كما تؤكد بعض الروايات، حيث إنه يحكى أن علية القوم في الحضارات القديمة كالحضارة الإغريقية مثلا كانوا يستمتعون بمعاشرة الغلمان لأنهم كانوا يعشقون أجسادهم الفتية، ذهلت حين وجدت بعض الباحثين يقولون إن هذا الاضطراب

الجنسي المصنف من بين أشد الاضطرابات الجنسية تطرفا قد ظهر قبل ظهور الشذوذ الجنسي بزمن طويل، إلا أن الغريب في الأمر أن البعض يخلط بينهما رغم تفاوهما في درجة الخطورة.

لست أدري لماذا قلما يسلط الضوء على البيدوفيليا مقارنة مع الجرائم الجنسية أو الاضطرابات المتطرفة الأخرى كالاغتصاب، السادية، المازوشية أو حتى النيكروفيليا.. هل لأن المجتمعات تعتبر البيدوفيليا أكبر طابو بين كل المحرمات الجنسية؟ لذا في كثير من الأحيان يفضل المجتمع دفن رأسه كالنعام كي لا يرى بشاعة هذا الفعل المقزز،لكن ما لا يدركه معظم الناس هو أنه بإنكارهم استشراء هذا الاضطراب الخطير في مجتمعاتنا أو بتوجيههم أصابع الاتهام نحو الطفل – الضحية الذي يعتبرونه شريكا في الجريمة التي سرقت طفولته وسلبت منه رجولته، أو براءها وعذريتها في حال ما إذا كانت الضحية طفلة صغيرة، فإنهم يساهمون بنسبة كبيرة في عدم التئام جروح ذاكرة الضحية، الضحية الصغيرة التي كثيرًا ما تصاب بعد سن البلوغ باضطرابات نفسية، اضطرابات في الميول الجنسية، أو في أسوأ الحالات يصبح الطفل الذي تعرض للاعتداء في صغره مغتصب أطفال بدوره، حسب بعض الإحصائيات، ثلاثون بالمائة من الأطفال المغتصَبين يصيرون بيدوفيليين بعد رشدهم، وقد يلجؤون إلى قتل ضحاياهم غالبا عن طريق الخنق، كما لو أنهم ينتقمون من أنفسهم في أجساد ضحاياهم – مراياهم..

اكتفيت من البحث، أكملت مقالي الجديد عن سفاح الما لا نهاية الذي عنونته ب: "هل يُدين سفاح المالانهاية العدالة المتساهلة مع البيدوفيليين؟".

ثم غادرت المقر صوب بيتي، في الطريق لفت انتباهي شاب ثلاثيني يلامس مؤخرة طفل لا يتجاوز الثامنة، كانا يقفان معا قرب إحدى المؤسسات التعليمية، لم يكن يبدو أنه قريبه، فكرت في أنه قد يكون جاره أو صديقا لعائلته التي ربما تأتمنه عليه لعدم إدراكها أن بعض المرضى يعتبرون جسد الطفل ملكا مشاعا ومنطقة غير محظورة.

دخلت إلى بيتي وأنا خائرة القوى، لم يسبق لقضية أن أنهكتني هكذا، فقط لو كان بإمكاني القيام بجولة داخل عقل هذا القاتل المتسلسل الذي يتأكد لي جريمة بعد جريمة أنه كائن شيطاني يخرج من إحدى هاويات الجحيم السفلي ليحصد أرواح ضحاياه،تلك الأرواح المدنسة بخطيئة قاتلة هي البيدوفيليا.

فجأة رن جرس الباب،قمت من مكاني ونظرت من العين السحرية فرأيت أمامي باقة كبيرة من الورد الأبيض تحجب وجه حاملها، أخبرني إحساسي بأنه عمر، كان هو كما توقعت، دخل مبتسما، أعطاني الباقة، شكرته على مفاجأته الجميلة و دعوته للجلوس، ما إن جلس حتى قال لي:

– لاحظت أنك تحبين الأبيض لأنك ترتدينه غالبا، لذا جلبت لك ورودا بيضاء.

ابتسمت وقلت:

– أحب قوة ملاحظتك للتفاصيل، كان يجدر بك أن تصير كاتبا..

ضحك قائلا:

– أؤكد لك أنه يستحيل أن أكتب بمهارتك..

استأذنته لأحضر القهوة،وما إن عدت حتى أعطاني صورة للضحية الخامسة، التقطتها بيد مرتجفة، كانت بشعة بكل المقاييس، لم أقوَ على النظر إلى بؤرتي الدم اللتين حلتا محل عينيْ القتيل، أعدتها له بسرعة، ساد الصمت إلى أن قلت:

– تقول بعض الروايات إن سَمْلَ عيني الميت يمنعه من العبور إلى العالم الآخر لأنه يعجز عن رؤية النور، ربما أراد السفاح أن ينتقم منه عبر ترك روحه هائمة إلى ما لا نهاية..

عقد حاجبيه وسألني:

– هل تعتقدين أن اليتيم هو نفسه سفاح الما لا نهاية؟

قلت بسرعة:

- لا، ليس هو، لكن هناك الكثيرون من أشباه هذا اليتيم، أفترض أن القاتل كان ضحية للاستغلال الجنسي في طفولته، ربما لم يخبر أحدا بما تعرض له، وربما لم تلاحظ أسرته ذلك أبدا، لذا هو يعاقب الآن كل البيدوفيليين الذين لم تعاقبهم العدالة كما ينبغي.

قال:

- لكن تعرض القاتل للبيدوفيليا في صغره لا يبرر القتل، بالنسبة لي، يريد القاتل أن يبعث لنا برسالة لينبهنا إلى أن الطفل - الضحية يكبر و تكبر معه علته النفسية التي ولدها إهمال وقسوة المجتمع..

قلت:

- أفكر أحيانًا في أن الأطفال الذين يتعرضون للاغتصاب والقتل يتحررون بموهم من المعاناة و اجترار الذكريات المأساوية مدى العمر، في حين أن ضحايا البيدوفيليا الأحياء يتعرضون للموت المعنوي ويستحيلون إلى أشباح لا أحد يأبه لمصيرها ولحياها التي دمرها لحظات قصيرة من المتعة القذرة، أتعلم يا عمر، المشكلة الحقيقية تكمن في أن المجتمع والقانون لا ينصفان الضحايا أبدا، ولهذا تتشوه شخصيات الأطفال - الضحايا إلى حد كبير..

لم يجبني، اكتفى بالنظر إليّ طويلًا، سألته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ابتسم وقال:

- لأنك في كل مرة تدهشيني بتحليلاتك العميقة..

اقترب مني، لفحتني أنفاسه الساخنة، مرر أصابعه الرشيقة على شفتي قبل أن يلتقطهما بشفتيه، امتزجت أنفاسنا، وأحسست بالاشتعال، لا أذكر كم مر من الوقت، كانت قبلة طويلة وملتهبة، تمنيت ساعتها أن يتوحد جسدانا ونصبح روحين في جسد واحد.. لكنه ابتعد عني، أخذ منديلا ورقيا مسح به آثار حمرة شفاهي التي خلفتها على شفتيه، ضمني بقوة و قال:

- أحيانًا.. أحس بأنني أحبك منذ أزمان..

ابتسمت قائلة:

- ربما التقينا في حياة سابقة..

قام ليودعني،لأول مرة أنتبه إلى ندبة أفقية في ساعده الأيمن، كانت تبدو قديمة، لمحني أنظر إلى ندبته، وفاجأني قوله:

- للندوب تاريخ.. لذا " لا أريد أن أدفن بلا ندوب "، كما قال " تشاك بولانك "..

في تلك الليلة، رأيت كابوسا تعجز كل الكلمات عن وصفه، رأيت نفسي أدخل إلى مستودع قديم، كنت أرتدي ثوبا أبيض طويلا، بغتة، خرج طفل جميل من العَدَم، كان فمه مكمما، أمسكني من يدي

وأدخلني إلى مكان معتم، كان هناك أطفال يرقصون بشكل دائري، داخل الدائرة كان هناك رجل عار، بلا ملامح، مقيد و محاصر من طرف الأطفال، كانت أفواه كل الأطفال مكممة و أعينهم محمرة، اقترب الطفل من إحدى الطفلات، بدت لي لا تتجاوز السابعة أو الثامنة، ربّت على كتفها وهمس بشيء في أذنها، التفتت نحوي وارتعبتُ كثيرًا من رؤية عينيها تذرفان دما، أردت أن أصرخ لكنني اكتشفت أن أحدهم قد وضع شريطا لاصقا على فمي، رغبت في العثور على مخرج لكن الطفل الجميل سحبني من يدي مجددا قبل أن نتوقف أمام الرجل صاحب الملامح المطموسة، أشار بسبابته إليه قبل أن يخرج سكينا لامعا ويذبحه أمامي بوحشية، تطاير الدم في ثوبي الأبيض و سقطت قرب الجثة التي كنت شاهدة على مذبحتها، هالني منظر الأطفال الذين انخرطوا في الرقص بفرح حول الجثة، قبل أن يشرعوا في تغطية جسد الضحية بعلامات الما لا نهاية، اقتربت الطفلة ذات العينين الداميتين من الطفل القاتل و طلبت منه شيئا، انتبهت إلى أن بنطاليهما ملطخان بالدم من الدبر، نظر إلي الطفل قبل أن يغمس أصبعه في دم ضحيته ويكتب لي في الأرض:

- " أنا الضحية والجلاد.."

***

تعبت من التجوال في مشرحة الذكريات من أجل دفنها في النهاية بين دفتي كتاب..

أكثر ما يوجع الكاتب الذي يشرع في ممارسة لعبة التذكر كتابة بهدف تصفية الذكريات العالقة، أنه في كل مرة يُنازل فيها النسيان بالذاكرة، تنتابه نفس الأحاسيس و يعيش نفس الألم الذي عاشه ذاتَ ذكرى بعيدة تأبى الانصهار في محرقة المنسي قبل أن تصهره معها..

وحده الكاتب محكوم عليه بأن يعيش الألم ألمين، كلما طلب اللجوء الأدبي من أجل التطهر من ماضيه، و التخلص من ذكرياته..

فقط لو كان بإمكاننا انتقاء الذكريات التي نرغب في محوها إلى الأبد، إذ ذاك ما كان لا وعينا المخادع – مستودع ذكرياتنا غير المرغوب فيها، ليطفو في أحلامنا، واستيهاماتنا، وكتاباتنا..

عليّ أن أخرج قليلا من هذه الغرفة المعزولة عن العالم الخارجي، علني أتمكن من الاستمرار في الكتابة..

أنظر إلى ساعتي، إنها العاشرة صباحًا، يفقد المصابون بلعنة الأرق الإحساس بالزمان والمكان على ما يبدو، لا أستوعب أنني لم أنم و لو للحظة قصيرة منذ حوالي أربع و عشرين ساعة، ترى هل أمضيت كل هذه الساعات في جحيم الذاكرة؟ من يكترث لي، أنا الكاتبة التي لا تكفيها مهدئات ومنومات العالم لتسكت مؤقتا صخب ذاكرتها القاتلة..

البيت خال إلا مني، غادرته والدتي مبكرًا متوجهة إلى المؤسسة التي تقوم بالتدريس فيها، في حين أن أخي غسان لن يعود قبل نهاية الأسبوع لأنه يتابع دراسته الجامعية في مدينة أخرى، يبدو أن الوحدة هي قدر كل من يمتهن الكتابة منذ الأزل..

أرتدي ثيابي بسرعة وأقفل باب البيت ورائي، لم أتنشق هواء الصباح المنعش مذ اضطربت ساعتي البيولوجية، أسير في أزقة مدينتي، أتعثر بين حين وآخر في الحصى، كم أكره هذه المدينة! إنها مدينة ميتة، قتلها إهمال المسؤولين الجشعين، لذا هي في نظري مجرد شبح، شبح يقض مضجعي بحمولة من الذكريات المؤلمة..

لا أحب أن أسير فوق ذكرياتي المبعثرة هنا وهناك مثل هذا الحصى المغبر.. لذا سأعود طواعية إلى معبد الذاكرة بعد أن أطرد حارسه المسمى بالنسيان، لأكمل روايتي..

أعود إلى البيت بخطى متثاقلة لأنني على موعد مع ذاكرتي التي تتماهى مع شبكة كلمات مُسهمة، متداخلة ومبهمة، أدخل فيتراءى لي الطيف القاتم وهو يمر بسرعة خاطفة في مرآة المدخل، مخلفا وراءه ظلالا رمادية كأيامي..

أتظاهر بأنني لم أرَ شيئا، كي لا يُمعن عقلي في تعذيبي بألاعيبه الشريرة، أدلف إلى غرفتي، وأشغل شريط ذكرياتي المسيلة للدموع لأستأنف الكتابة..

كان عيد ميلادي، أول عيد احتفلت به كما ينبغي، وآخر عيد سأحتفل به إذا ظل في عمري عُمْر.. ليتني أدركت حينها، وسط فرحي العابر، أنه في قانون أعياد الميلاد، المبدأ الساري هو:

-"عيد لك، وعيد عليك.."

في ذلك اليوم، الذي يبدو لي في هذه اللحظة كما لو كان حلما منفلتا، عدت من مقر الجريدة إلى شقتي الكئيبة، طيلة اليوم لم يعايدني أحد إلى أن كدت أنسى هذا التاريخ المميز الملتصق بي منذ الولادة، شغلت قرصا مدمجا وجلست أسامر الوحدة، كانت عقارب الساعة تتحرك ببطء قاتل نحو السابعة مساء،وكانت السيدة أم كلثوم تشدو:

"سوف تلهو بنا الحياة و تسخر..

فتعال.. أحبك الآن أكثر.."

فجأة، رن هاتفي، كان عمر، أجبت، كانت ضربات قلبي مفرطة السرعة، تناهى إلى سمعي صوته الذي لا يشبه كل الأصوات:

– أهلا عايدة، كل عام و أنت كما أنت..مبدعة..

سألته باستغراب:

– كيف عرفت أن اليوم يصادف ذكرى ميلادي؟

ضحك قبل أن يقول:

– لا تسألي أبدًا رجل أمن عن كيفية وصوله إلى معلومة هامة..

ضحكت وتفاجأت حينما قال:

– أنا الآن على عتبة باب بيتك، ألن تفتحي لي؟

هرعت لأفتح، كدت ألا أصدق ما رأيته، كان يقف متأنقا ببذلته السوداء، وكان يحمل علبة كبيرة مغلقة بشريط زهري، استنتجت أنها كعكة ميلاد، دعوته للدخول، دخل وأعطاني العلبة، قبّلته وشكرته على مفاجأته الجميلة.

ما إن جلس، حتى بادرني قائلًا:

– السابع من ماي يوم مميز جدا، لأنه شهد ميلاد أنثى استثنائية بكل المقاييس..

احمرت وجنتاي، أدخل يده في جيبه وأخرج علبة حمراء صغيرة، وضعها بين يدي قائلا:

- أتمنى أن تروقك هديتي..

فتحت العلبة بلهفة،كان بداخلها سلسلة فضية تحمل اسمي، عانقته قائلة:

- ألن تضعها حول عنقي؟

استجاب لطلبي وهو يبتسم، نظرت إليه طويلا وقلت:

- أعدك بأنني لن أنزعها أبدًا..

مرر أصابعه على شعري وقال ممازحا:

- لا يبدو أنك ترغبين في أكل كعكة عيدك قبل أن أرحل..

ضحكنا طويلا قبل أن أتوجه إلى المطبخ لأجلب سكينا، صحنين وشوكتين، عندما عدت، ذهلت لأنني وجدته قد فتح العلبة، كانت الكعكة مزينة بلوحة غلاف كتابي " تاريخ النسيان"، بقيت مشدوهة للحظات إلى أن قال:

- ألا تريدين أن تحتفلي معي بعيدك السابع والعشرين؟ يشاع أن سن السابعة والعشرين يشكل خطرا على المبدعين، لذا عليك أن تحتفلي به لعلك تكسرين هذه اللعنة..

ليلتها احتفلنا كما لم يسبق لي الاحتفال..

فقط لو كان شريط ذكرياتنا يمنحنا خاصية التقاط لحظة سعادة حقيقية، لنعيشها من جديد متى أردنا، ما كنا حينها لنشعر بالأسى يعتصر قلوبنا في كل مرة نتذكر فيها حدثا مضى وانقضى..

في تلك الليلة، تمنيت أن يوقف " كرونوس" ساعات العالم، لكنني كنت أدرك مسبقا أن أمنيتي هذه لن تتحقق، لأن اللحظات السعيدة تمر بسرعة الضوء وتنفلت من بين أصابعنا كما الرمل..

وحدها التعاسة تقيم معنا، توقف عقارب زمننا و تستوطن ذاكرتنا ولو تظاهرنا بالنسيان..

ليلة آخر أعيادي، قال لي:

– أمنيتي أن أرى غلاف كتابك الثاني في مثل هذا اليوم من العام القادم..

أجبته:

– لدي مشروع روايتي الثانية، لكن عملي الصحفي يعيق تنفيذي له..

نظر إليّ باهتمام بالغ وقال:

– جيد جدا، ما هو موضوع روايتك القادمة؟

- رواية عن الآثار البَعْدية للبيدوفيليا، أعتقد أنني سأستلهم أحداثها قليلا من قضية سفاح الما لا نهاية..

- إذن لَمَ لا تشرعين في الكتابة ما دام لديك التصور الأولي للعمل؟

قلت بمرارة:

- لا أخفيك أنني لم أعد قادرة على الاستمرار في العمل الصحفي.. لكنني أخشى أن أفشل في تحقيق حلمي الأدبي..

قال:

- ألست قادرة على اتخاذ قرار خطير كالاستقالة من الجريدة والتفرغ للكتابة الروائية في عامك السابع والعشرين؟ قلت لك إن قدرك هو أن تكوني روائية..

أجبته:

- لن أتمكن من تقديم استقالتي قبل أن تنتهي قضية سفاح الما لا نهاية، علي أن أكمل ما بدأته..

قام فجأة وقال:

- نسيت شيئا في السيارة، سأعود فورًا..

عاد وهو يمسك كتابا، كان ديوان " أزهار الشر" لبودلير، قال مبتسما:

– أردت أن أهديك هذا الديوان لأنه مميز وملهم، وكذلك لأنني وجدت أن بعض الأشعار التي يضمها تبدو كما لو كانت قد كتبت عنك..

ليلتها.. قبّلته كما لم أقبل أحدا قبله، قبلته بشبق مُعتّق، حملني بين ذراعيه كطفلة صغيرة، طوقته برجلي، سرى في جسدي خدر لذيذ، وكدت أستسلم لغيبوبة عشقية خارج الزمن.. لولا أن هاتفه اللعين رن، رد بسرعة، وما إن أنهى المكالمة حتى قال لي:

– أعتذر، علي أن أذهب فورا، هناك أمر طارئ..

ودّعته ثم عدت إلى غرفة الجلوس وشغّلت التلفاز، كانوا يعرضون الفيلم الرومانسي الرائع **The Notebook**..

كنت قد شاهدته مرارا.. لكن في كل مرة يُعرض فيها أحس بأنني أشاهده للمرة الأولى، ومع ذلك لم أستوعب فكرته إلا بعد فقدي لعمر..

فعلا، يستحيل أن نفقد ذاكرتنا القلبية، حتى لو أصبنا بمرض النسيان..

***

على حين غرة، أجدني تائهة في مفترق طرق مظلم و مقفر، أسير وسط ضباب كثيف والرياح تعبث بشعري وبثوبي، ينقشع الضباب، أكمل سيري وسط أوراق شجر شاحبة تتلاعب بها الرياح العاتية، أسير بلا توقف إلى أن تتراءى لي لافتة كبيرة تشير إلى طريقين متقاطعين: الأول "شارع الذاكرة" والثاني "شارع النسيان"، أحتار قليلا قبل أن أختار اتباع السهم المؤدي إلى "شارع الذاكرة" حتى النهاية..

أستمر في السير نحو دروب الذاكرة المجهولة، أرفع رأسي نحو السماء الحالكة السواد وأرى قمرا دمويا يتوسطها، قمر مرعب يقطر دما تحيط به نجوم صغيرة براقة، أصرخ ملء قوتي حينما تسقط النجوم من سمائها لتحل محلها علامات ما لا نهاية كبيرة ولامعة، أتوقف مشدوهة للحظات أراقب النجوم المحترقة المبعثرة قرب قدمي.. أشعر بهزة قوية تضرب عمق قلبي حين ألمح ذئبا متحولا يقف أمامي مباشرة

و هو ينظر إلي بعينيه الحمراوين، أبقى جامدة في مكاني كتمثال شمعي لكنه يسير نحوي، أطلق ساقي للريح، يتبعني بتؤدة، ألتفت ورائي بين الحين و الآخر لأتأكد من أنه لا زال يتعقبني، فجأة يختفي كما ظهر مخلفا وراءه عددا هائلا من الفراشات السوداء الضخمة، تحط إحدى الفراشات فوق كتفي، أهزه بقوة لتبتعد عني، أوشك على الموت رعبا و أنا أرى الطيف القاتل يقف في نفس المكان الذي تبخر فيه الذئب المتحول، أحاول الهرب لكنه يطاردني،أنظر إليه لعلي أتبين ملامحه لكن غطاء رأسه يخفي وجهه بالكامل، أستسلم وأتوقف أمامه مباشرة، يضحك طويلا قبل أن يقول لي:

- كل الطرق تؤدي إلى الانتقام، أليس كذلك يا سيدة الخسارات؟

أسأله:

- من أنت؟ هل أنت كائن بشري أم أنك شيطان مفترقات الطرق؟

يجيبني:

- أنا ظلمة الروح.. أنا قاتل الأحلام..

أركض نحو شارع النسيان لأجد مخرجا من صحراء الذاكرة القاحلة، يصيح قائلا:

– يستحيل أن أتركك تصلين إلى هذا الشارع المتداعي، أتدرين لماذا؟ لأنني أنا ذاكرة النسيان..

أصحو من غفوتي المسائية القصيرة وأنا مرتعبة جدا، تعبت من ملاحقة الطيف القاتل لي في صحوتي ومنامي،فقط لو أعرف ماذا يريد مني، علني بعدها أتمكن من طرد شبحه الذي يأبى مفارقتي، لأنعم أخيرًا بالنسيان..

يتحتم علي أن أواصل الكتابة.. لأدق مسامير النسيان في نعش الذاكرة..

***

أستسلم للاحتلال الغاشم للذكريات لأكمل روايتي، بعد أن أدركت - متأخرة جدا - أن حربي ضد الذاكرة لم تكن قط متكافئة، وأن مواجهة الذاكرة بالنسيان لا تُجدي نفعا أمام غزو جحافل الذكريات لنا، رغما عنا..

عليّ أن أرفع رايتي البيضاء وأعلن انهزامي لأكتب، لأفرغ علبة ذكرياتي وأحرر ذاكرتي من اجتياح قوات الذكريات الطاغية، حينها فقط يمكنني أن أعلن انضمامي إلى حلف النسيان..

كان يوم أحد مشمس، وكان فصل الربيع يوشك على الانتهاء، كنت جالسة رفقة الوحدة في شقتي الصغيرة أحاول كتابة تحقيق عن الجرائم الإلكترونية لكنني لم أستطع، قمت وشغلت التلفاز، كانت نشرة الأخبار ستقدم بعد دقائق معدودة، صعقت عندما بدأت النشرة بخبر إلقاء القبض على مغتصب وقاتل طفل في الثامنة من عمره، كانت وسائل الإعلام قد تناولت القضية طوال الأسبوع الفارط، كما

تداولت صور والد الضحية، كان أبا مكلوما، يظهر في ريبورتاج وهو يبكي بحرقة ويصرخ وهو يطالب المسؤولين بتطبيق أقصى العقوبات في حق الوحش الذي اغتصب وأزهق روح ابنه بطريقة بشعة، قبل أن يتخلص من جثته في إحدى الغابات..

لم يكن الوحش المغتصب والقاتل سوى الأب الذي أثبتت تحاليل الحمض النووي التي أجرتها الشرطة العلمية أنه هو مرتكب هذا الفعل الشنيع بحق فلذة كبده..

بقيت مشدوهة للحظات، لأن عقلي أبى تصديق فرضية تقول إن اضطراب البيدوفيليا المتطرف والخطير جدا لا يفرق بين الابن والأخ وابن الصديق وطفل مار بالصدفة قرب وحش آدمي، لأن الأهم بالنسبة لهاته الوحوش هو تفريغ مكبوتاتها في جسد كل فريسة يضعها حظها السيء في طريقها..

تُرى هل لمغتصبي حياة أطفال في عمر الزهور الحق في الحياة؟

أكثر شيء لفت انتباهي في التقرير الإخباري أن الأب المغتصب لم يُبد أي ندم ولم يبك أثناء إعادة تمثيله لجريمته الوحشية، ألأنه تيقن من كونه لم يبق لديه ما يخسره لذا لم يعد بحاجة إلى التمثيل وذرف دموع اصطناعية؟ لن أعرف أبدا.. كل ما كنت أعرفه ساعتها أن هذه الجرائم القذرة قد دمرتني نفسيا..

في تلك الليلة أخذت منوما وخلدت إلى النوم لعلي أنسى البشاعة التي شاهدتها والتي ظلت راسخة في ذهني طيلة اليوم، كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا حين رن هاتفي، أفقت من نومي المضطرب وأمسكت الهاتف، كان عمر:

– أهلا عايدة، لقد وقع سفاح الما لا نهاية جريمته السادسة هذه الليلة، الضحية الأخيرة رجل في بداية عقده الرابع تقريبا، عثرنا على جثته ملقاة قرب إحدى محطات الوقود المتواجدة خارج المدينة، في هذه المرة عمد السفاح إلى بتر اليد اليمنى لضحيته.

سألته:

– هل توصلتم إلى هوية الضحية؟ أهو متورط كذلك في قضية من قضايا البيدوفيليا؟

أجابني:

– لم نجد أي أوراق ثبوتية مع الضحية، سأخبرك بالمستجدات أولا بأول، أعتذر عن إزعاجك في هذه

الساعة المبكرة..

أقفل الخط، كان يبدو أنه منزعج جدا، حاولت أن أستأنف نومي لكن تقاسيم وجه الأب – المغتصب الباردة المرتسمة في ذاكرتي البصرية لم تتركني أنعم بلحظة واحدة من الراحة،لذا، غادرت سريري وجلست بانتظار إشراقة يوم جديد، وأنا أحاول أن أتخيل النظرة

الأخيرة للطفل القتيل قبل أن تنطفئ عيناه، في اللحظة التي علم فيها أن والده هو الذئب..

من قال: "وحدها الوحوش تأكل صغارها"، لم يلتق أبدا بوحوش تستعمل وعاء بشريا لتتنقل بيننا بحُرية..

في اليوم الموالي، كنت في طريقي إلى شقتي بعد يوم متعب في الجريدة، حين توصلت برسالة قصيرة من عمر:

– مساء النور عايدة، سأوافيك في شقتك على الساعة السابعة، انتظريني..

قدم في الموعد المحدد، طبع قبلة حارة على خدي، وجلس يتأملني للحظات قبل أن يقول:

– تبدين حزينة جدا اليوم، ما خطبك؟

سكتُ قليلا ثم قلت:

– كل ما في الأمر أنني لا زلت متأثرة بقضية الطفل الذي اغتصبه و قتله والده..

عانقني وقال:

– عليك أن تتيقني من أن أمثال هذا الطفل كثر، وأن القضايا التي تصل إلينا وإلى الرأي العام مجرد غيض من فيض، لأن القانون المنظم للبيدوفيليا هو الصمت المؤبد، ولهذا فالجرائم التي تتناهى إلى علمنا لا تمثل سوى نسبة ضئيلة ولا تُعبّر عن حجم هذه الظاهرة التي

أكاد أجزم بأن رقمها الأسود كبير جدا مقارنة مع باقي الجرائم التي لا يجد ضحاياها حرجا في التبليغ عن حدوثها..

سألته:

- أين وصلت تحقيقاتكم في قضية سفاح المـا لا نهاية؟ هل توصلتم إلى معلومات بخصوص الضحية السادسة؟

أجاب:

- الضحية السادسة كان رجلا متزوجا، وكونه عاطلًا عن العمل كان يلازم البيت كثيرًا، بينما كانت زوجته تشتغل كعاملة تنظيف في إحدى الإدارات، كانت شقيقة زوجته تقطن معهما، هي فتاة في الرابعة عشرة من العمر، يتيمة و مصابة بإعاقة ذهنية، إضافة إلى كونها مُقعدة، كان الجميع يلاحظ أن زوج شقيقتها يعتني بها ويأخذها في نزهات، ولم يشك أحد بما في ذلك زوجته بأنه يستغلها جنسيًا منذ مدة إلى أن انتفخ بطنها، عندما عرف أن أمره قد كشف هرب، قدمت زوجته شكاية ضده إلا أن سفاح المـا لا نهاية عثر عليه قبل أن تصل إليه الشرطة..

- لكن كيف عثر عليه وأين؟

- رجحنا فرضية هروب الضحية إلى إحدى المدن المجاورة، لكننا لا نعرف كيف حدد القاتل مكانه بالضبط، أتدرين؟ أحيانًا يبدو لي هذا القاتل كطيف يحضر وقتما شاء وأينما شاء قبل أن يتلاشى..

- وماذا عن الفتاة المغتصبة؟

- حاليًا هي حامل في شهرها الخامس،عندما سيحين موعد وضعها سيتم إخضاعها إلى عملية قيصرية وسيودعون طفلها في إحدى دور الرعاية على ما أعتقد..

تنهدت و قلت:

- كم ترعبني جرائم البيدوفيليا المقرونة بزنى المحارم، ترى هل أصبح الأقرباء أخطر من الغرباء في هذا الزمن؟

ظل مطرقا للحظات، إلى أن قلت له:

- ما رأيك في أن نشاهد فيلما معا؟

ابتسم و هز رأسه موافقا، شغلت التلفاز وجلسنا نشاهد فيلم:

The curious case of benjamin button.

وضعت رأسي على كتفه طويلا، فجأة، قبلني بلهفة، استسلمت لشفاهه المفترسة وأنا أحس بانفجار شهواني يحرق جسدي، انتهى الفيلم، كان يهم بالمغادرة حينما أوقفته قائلة:

- ما رأيك في أن تقضي الليلة هنا؟

فكر قليلا وقال:

- اعذريني، لا أستطيع..

صدمني رفضه، قمت لتوديعه، قبل أن يغادر قال لي:

– فقط لو كنا مثل بطل الفيلم، نموت ونحن رُضع..

سألته باستغراب:

– لماذا؟

قال مبتسما:

– كي لا نتذكر البشاعة البشرية ولا نتألم ونحن نقلب دفاتر ذكرياتنا وخساراتنا، أنسيت قولك في كتابك "تاريخ النسيان":

"العزاء الوحيد هو أن المصاب بمرض" ألزهايمر" يموت سعيدًا، بذاكرة فتية خالية من الذكريات المضنية، مثلما يموت رضيع لم تسعفه الحياة ليملأ علبة ذاكرته بوجع الذكريات.."

قلت مندهشة:

– لديك قدرة مذهلة على تذكر أشياء كتبتُها ونسيتها..

قبّلني، ورحل..

أشعر بإرهاق شديد هذه الليلة، أنهكني الزحف فوق الرمال المتحركة للذاكرة، عليّ أن أستحم، وأخلد إلى النوم قبل أن أستأنف الكتابة..

أستحم برذاذ الذاكرة، وأنا أهم بالخروج من الحمام ألمح كتابة تعلو مرآتي المغطاة بالبخار، أقترب و أقرأ سؤالا:

– إلى متى ستستمرين في الكتابة عنه أيتها الغبية؟

أغمض عيني ثم أفتحهما، اختفت الكتابة، إنه مجرد وهم بصري اخترعه عقلي، قبل أن أغلق باب الحمام، أسمع الطيف القاتل يهمس لي:

– أنا كاتب أحلامك، أنا بطلك..

أغلق الباب بإحكام وأركض إلى غرفتي وأنا أتساءل:

– أما لهلاوسي وكوابيسي من نهاية؟

تبًا لك أيها الطيف القاتل، ستكون ميتتك الأدبية على يدي، أعدك!

***

أعجز عن تذكر كم أمضيت من الوقت تائهة في هذا الحقل المحترق المخيف، ما أذكره هو أنني كلما حاولت البحث عن مخرج منه أجدني محاطة بسياج شائك يمنعني من تجاوز الحقل المهجور، أنظر إلى السماء، الشمس توشك على المغيب، أقرر أن أتسلق السياج الشائك لأغادر هذا الحقل الميت..

أتسلق السياج بمشقة، تؤلمني يداي كثيرًا، أنتبه إلى أن السياج قد جرحهما، أستمر في السير إلى أن أصل إلى حقل آخر، تتسارع نبضات قلبي حين أرى دمى مرعبة مربوطة بإحكام إلى جذوع أشجار عملاقة، بعض الدمى محترقة،وبعضها مبتورة الأطراف، أما البقية فهي بلا أعين، أصرخ عندما تدير إحدى الدمى مبتورة الأطراف رأسها نحوي ببطء، أركض لأخرج من حقل الدمى الشريرة، أتوقف عن الركض بعد أن ألمح غابة شاسعة، ليس أمامي سوى أن أعبرها لعلي أعثر على منفذ يؤدي إلى طريق عام، تخيفني الأشجار الباسقة التي

تلقي بظلالها الرمادية حولي، يرخي الليل سدوله و أنا لا أزال تائهة في هذه الغابة المظلمة، يهيأ لي أنني أسمع أصوات خطوات قريبة مني، أختبئ خلف إحدى الأشجار وأصدم وأنا أرى أطفالا صغارا متشحين بالسواد يعبرون الغابة، ألاحظ أن أغلبهم يحملون في أيديهم الصغيرة فؤوسا، بينما يحمل الباقون مشاعل يضيئون بها طريق أصدقائهم، يلتفت أحدهم نحو مخبئي وكأنه استشعر وجودي، قبل أن يشير إلى أصدقائه ليتبعوه، أركض لأهرب من الأطفال – الحاصدين، إلا أنني أتعثر وأتدحرج من أعلى تلة إلى أسفلها لأجد نفسي أمام بيت قديم..

أنهض من سقطتي، أخطو خطوات حثيثة نحو البيت، أتوقف عند بابه الذي يحمل الرقم 250، أتردد قبل أن أطرق طرقات خفيفة وأنا آمل أن يساعدني أحد قاطنيه، لا يستجيب أحد لطرقي، أستنتج أن البيت خال مع أن ضوء إحدى الغرف مضاء، أحاول أن أفتح الباب وأتفاجأ حينما يُفتح تلقائيا، أدخل وأتفاجأ أكثر عندما يُغلق الباب خلفي، أنتبه إلى أن البيت يبدو مهجورا منذ زمن طويل، أمشي فوق أرضه المكسوة بالغبار، إلى أن توقفني قدماي أمام باب الغرفة المضاءة، المغطى بشبكة عنكبوت ضخمة، أفتحه بخوف شديد فأجد سلما طويلا خلف الباب،أنزل أدراجه بحذر قبل أن يُفضي بي إلى قبو شديد الظلمة، أبقى واقفة في مكاني إلى أن تعتاد عيناي على الظلام، وأطلق صرخة قوية وأنا أرى أشكالا آدمية داخل القبو، أستجمع شجاعتي وأقترب من أحدها، ألمسه فأكتشف أنه رجل وضع أحدهم شريطا لاصقًا على فمه، أنزع الشريط اللاصق فيصيح بي كمجنون:

- فكي وثاقنا، إنهم قادمون ليحصدوا أرواحنا..

لا أفهم عما يتحدث، فجأة، يتناهى إلي صوت طفلة تغني بفرح:

- سنقتل الذئاب، سنقتل الذئاب..

أخرج من القبو بسرعة باتجاه الدرج لأصل إلى الباب،أقفله ورائي وأركض لأبحث عن مخرج من البيت، يلزمني أن أغادر هذا البيت الملعون قبل أن يفطن أحد الأطفال - القتلة إلى وجودي..

بعد بحث طويل أتمكن من العثور على باب خلفي، أدير مقبضه بسرعة وأطلق صرخة مكتومة بعدما هاجمني خفافيش مفزعة، لو علمت أن هذا الباب مغلق على خفافيش لعينة ما كنت لأفتحه، أنجح في التخلص من الخفافيش، أقفل الباب وما إن أتجاوزه حتى تعلق قدماي في مياه راكدة، لزجة، أنظر تحتي وأهلع عند اكتشافي أنني عالقة داخل بركة دموية، أسمع أحدهم يحاول فتح الباب الخلفي، أتجمد من الفزع وأنا أشاهد الأطفال- الحاصدين يلقون بجثث رجال عراة في البركة، ينظر نحوي أحد الأطفال قبل أن يقذف لي رأسا مشوها وهو يقول:

- لَمَ لا تلعبين معنا؟

أصحو من كابوسي وجسمي مقشعر، أنظر إلى ساعتي، إنها الثالثة صباحًا، البرد قارس للغاية، أفكر في مغادرة سريري لأكتب قليلا عساني أنسى الكابوس الذي أوشك أن يصيبني بنوبة قلبية، أسمع طرقا على نافذتي، أوجه نظري صوبها وأفقد صوتي وأنا أرى يدًا صغيرة

خارج النافذة ترسم علامة اللانهاية فوق زجاجها المغطى بالبخار، أغمض عيني ثم أفتحهما لأتأكد من حقيقة ما أراه،لأسقط مغشيا علي بعد رؤيتي لظلال قاتمة تحاول فتح نافذتي من الخارج..

***

طيلة الأسبوع المنصرم كنت طريحة الفراش، بعدما خارت قواي وارتفعت درجة حرارتي كثيرًا، وطوال وعكتي الصحية كنت أهذي وأرى الطيف القاتل يطل علي من فوق، وكأنه استحوذ على عقلي، ليتني أتمكن من طرد شبحه الذي يطاردني أينما حللت وارتحلت، حينها فقط سأحظى بنوم هادئ،خال من الكوابيس المفزعة، وسأقضي أيامًا عادية، لا مكان فيها للهلاوس والتهيؤات..

قلقت علي والدتي كثيرًا، وهاتفت أحد الأطباء، قدم ليفحصني، لم أميز ملامحه جيدا بسبب رؤيتي الضبابية، بعدما انتهى من فحصي، سمعته يطمئن والدتي ويعزو تداعي صحتي إلى الإرهاق، أهذا كل ما في الأمر، مجرد إرهاق بسيط أدى إلى انهياري؟ ترى هل أرهقتني ذاكرتي النازفة إلى هذا الحد؟ لا أعلم.. ما أعلمه هو أن لا أحد بإمكانه النظر داخل رأسي ليدرك حجم معاناتي الداخلية..

أفكر في أنه يلزمني أن أتكيء على عصا الذاكرة، لأتابع سردي، وأحرق الأشباح التي تستوطنني، عساني أنعتق، رغم معرفتي المسبقة بأنه لا وجود لشبح نتخلص منه نهائيا..

***

بحكم اشتغالي بقسم الحوادث، تابعت عدة قضايا، وكتبت العديد من التحقيقات حول جرائم في قمة الوحشية، إلا أنني لن أنسى ما حييت تلك الجريمة المرعبة التي يعجز العقل عن تصورها، والتي راح ضحيتها طفل صغير بعدما تعرض لاغتصاب بشع بواسطة آلة حادة، وكانت الصدمة الكبرى في هذه القضية هي أن جارة أسرة الطفل الراحل هي من اعتدت عليه بهذه الطريقة الشاذة والشنيعة..

كنت أعلم أن اضطراب البيدوفيليا المتطرف ليس حكرا على الرجال، وأن هناك حالات من البيدوفيليا النسائية، إلا أن الرقم الحقيقي لهذه الحالات لا يزال مجهولا مقارنة مع حالات البيدوفيليا الرجالية، لكنني لم أتصور أبدا أنه سيأتي يوم أصادف فيه قصة مخيفة عن البيدوفيليا، بطلتها امرأة متزوجة لم أستطع أن أفهم نوع الاضطراب الذي قادها إلى اقتراف هذا الفعل الشنيع، إلى درجة أنني شككت في كونها مصابة باضطراب أو خلل نفسي لم يتم اكتشافه وتصنيفه بعد..

كنا قد نشرنا خبر هذا الاعتداء الوحشي قبل أقل من أسبوع على مفارقة الطفل – الضحية للحياة، بعد أن تدهورت حالته كثيرًا جراء ما تعرض له بسبب الاعتداء من نزيف وآلام حادة على مستوى الأمعاء، وإسهال وارتفاع كبير في درجة الحرارة، كانت أسرته قد قامت بنقله إلى المستشفى إلا أن مضاعفات الاعتداء الجنسي الشاذ سببت وفاته بعد سبعة أيام من المعاناة الجسدية والنفسية.

بعد وفاته بأيام، أجريت لقاء مع والدته، كان لقاء مؤثرا للغاية، كنت أغالب دموعي كي لا أنهار وأنا أسمع منها تفاصيل الاعتداء على ابنها الصغير، كانت جارته تستغل غياب والدته وجدته عن المنزل لتختلي به كي تفرغ كبتها الدفين في جسده الغض، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أحس فيه بآلام قوية في بطنه، الشيء الذي جعل أسرته تأخذه إلى المستشفى، لينكشف سر الاعتداء الجنسي الشاذ عليه، وتتعرض الأسرة لصدمة قوية بعد كشف الطفل لهوية الفاعلة.

أنهيت اللقاء بسرعة لأنني لم أكن قادرة على تحمل هذه القصة الفظيعة، وفي طريق عودتي إلى الجريدة، تذكرت قضية تعود وقائعها إلى عامين، كان الطفل ضحيتها قد تعرض لاغتصاب وحشي تسبب في خروج أمعائه، تم نقله إلى المستشفى و إخضاعه إلى عدة عمليات دون جدوى، وقبل مدة أخبر الطبيب المعالج أسرته بأنه سيتوقف عن علاجه لأن شفاءه مستحيل..

الفرق بين هاتين القضيتين هو أن الطفل ضحية الاغتصاب بآلة حادة قد فارق الحياة بعد سبعة أيام من العذاب، في حين لا يزال الطفل الذي أخرج الاعتداء الهمجي أمعاءه قيد حياة اصطناعية، وستبقى معاناته مستمرة..

تساءلت:

أليس هناك سقف لتطرف ولا إنسانية البيدوفيليين الوحوش؟

***

ليلة لقائي بأم الطفل المغتصب الراحل، رأيت كابوسا بشعا للغاية، رأيتني واقفة أمام بوابة مدينة ألعاب، دفعت البوابة بصعوبة ودخلت، تجولت قليلا داخل مدينة الألعاب التي تبدو مهجورة منذ سنين.. لفتت انتباهي الأعشاب الكثيفة التي تكاد تغطي الألعاب بالكامل، تأملت الأفعوانية الضخمة، والأحصنة الدوارة طويلا، لم أفهم لماذا هجر الأطفال مدينة الألعاب الجميلة هذه، واصلت اكتشاف المدينة إلى أن توقفت عند باب كبير، فتحته فوجدت نفسي عالقة داخل متاهة زجاجية لا نهاية لها، بحثت طويلا عن مخرج بلا جدوى، فجأة، تراءى لي انعكاس صورة طفل صغير في إحدى المرايا، تلفتت حولي لكنني لم أجده، سمعت ضحكات أطفال قريبة مني، قررت أن أعثر على مخرج من المتاهة، تابعت السير، قبل أن أرتطم بالزجاج و أؤذي رأسي،سقطت للحظات ثم نهضت لأتابع بحثي، بعد عناء، عثرت على مخرج من المتاهة، وما إن خرجت حتى وجدت نفسي أمام منزل تعلو بابه مجسمات مخيفة لأشباح وشياطين وكائنات مرعبة. دخلت إلى

المنزل الغريب، كانت الأضواء تومض بشدة، أفزعتني الهياكل العظمية المنتشرة داخل البيت، والأوعية الزجاجية الموضوعة فوق رفوف خشبية قديمة، والتي تحتوي على أجزاء بشرية، وكدت أموت هلعا بعدما انفتح أحد التوابيت تلقائيا لتتدلى منه جثة امرأة تبدو كساحرة شريرة، اكتشفت أنني تائهة داخل بيت رعب، وقررت أن أغادره على وجه السرعة، قادتني قدماي إلى باب علقت فوقه لافتة كتب عليها:

"تحذير: لا تفتحوا هذا الباب".

لم آبه للتحذير،وعبرت الباب الذي أفضى بي إلى قاعة كبيرة هالني ما رأيت فيها من فظاعة،كان هناك طفل جميل يلبس رداء أسود طويلا يدور حول عجلة سَحْق رُبط عليها رجل عار، مشوّه، كان الطفل يبدو كما لو أنه يقدم أحد العروض لأصدقائه الصغار الذين كانوا يتابعونه باهتمام وإعجاب كبيرين، كان الرجل العاري مثبتا فوق أداة التعذيب بشكل مُنْحَن، جلب الطفل ذو الرداء الأسود قضيبا معدنيا، أدخله بسرعة وسط عجلة السحق،قبل أن يجلب أحد أصدقائه كلابا سوداء مكشرة عن أنيابها، تنبح بشكل مخيف، شرع الطفل في تدوير العجلة ببطء مستعينا بالقضيب المعدني المثبت وسطها، ثم قدمت فتاة صغيرة تضع قناع مهرج حزين على وجهها، وأضرمت النار تحت عجلة التعذيب، كان الرجل العاري يطلق صرخات قوية في حين كان

الأطفال المتفرجون يضحكون ويصفقون بحرارة، بدوا مستمتعين بمنظر الكلاب الجائعة وهي تنهش لحم جلادهم - ضحيتهم المشوي، أوشكت على التقيؤ، قبل أن أتوجه نحو المدخل لأغادر هذا الجحيم.

اقتربت مني الطفلة الصغيرة، أمسكتني من يدي وسألتني:

- ألن تشاهدي معنا عرض المخلعة؟

***

لا زلت أتذكر الليلة التي ارتكب فيها سفاح الما لا نهاية جريمته السابعة، الجريمة الأخيرة و الأكثر شناعة بين كل جرائمه المتسلسلة، كانت ليلة جد حارة من أواخر شهر يوليو، ليلة عجزت فيها عن النوم بسبب القيظ، كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا حين اتصل بي عمر:

– أهلا عايدة، قبل بضع ساعات اقترف سفاح الما لا نهاية جريمته الأبشع على الإطلاق، وجدنا جثة السياسي المخضرم " منصف سراج الدين" عارية وتسبح في بركة من الدماء داخل إقامته الثانوية بإحدى الضواحي القريبة من المدينة،في هذه المرة،كان القتيل ملقى أرضا على وجهه بعد أن قام القاتل بذبحه بوحشية إلى درجة أنه كاد أن يفصل رأسه عن جسده، إضافة إلى ذلك، عمد السفاح إلى قطع العضو الذكري لضحيته،الشيء الذي جعلنا نشك في أنه كانت تربطه علاقة جنسية بالضحية، وكالعادة ترك توقيعه بعلامة الما لا نهاية على

مؤخرته، لكن القاتل المريض أخطأ حساباته هذه المرة، لا نعرف إن كان قد استشعر خطرا ما أم ماذا، لأنه خلف بصماته وأثر حذائه في مترل الضحية، مما سيمكننا من تحديد هويته و إلقاء القبض عليه قريبا، كما أن هاتف الضحية بحوزتنا، ولفت انتباهنا أنه أجرى مكالمة هاتفية مباشرة قبل الجريمة، نرجح أنه هاتَف القاتل، لكنك لن تتصوري المفاجأة الكبرى في هذه الجريمة..

قلت بسرعة:

- أخبرني، أرجوك..

قال:

- في هذه المرة أقدم السفاح على سرقة الراحل، وجدنا خزانته محطمة، وأكدت لنا زوجته أنه كان بحوزته مبلغ مالي هام، وساعة ذهبية فاخرة.

سألته:

- من تكون زوجة الضحية؟ هل لديهما أطفال؟

رد قائلا:

- هي تكون الزوجة الثانية للراحل، ولديها ابنتان من زواج سابق،ولم تنجب أطفالا من الضحية لأنه كان عقيما، عايدة، سأوافيك بالمستجدات، تصبحين على خير.

لم يغمض لي جفن، بقيت أراقب خيوط الصباح الأولى وأنا أفكر في أن سفاح المالانهاية - القاتل الخارق - لم يكن ليخطئ ويخلف آثاره في مسرح الجريمة، لو لم يكن قد داهمه الوقت، أو حدث شيء ما خارج حساباته.

في الليلة الموالية، اتصل بي عمر مجددا، كان يبدو من صوته أنه مبتهج، قال:

- هنئينا يا حبيبتي، لقد حددنا هوية سفاح الما لا نهاية أخيرًا، وساعدنا في ذلك غباؤه الشديد في هذه المرة، كنت أود أن أوافيك في شقتك لكن لم يسعفني الوقت، المهم، سفاح الما لا نهاية شاب في بداية عقده الثاني يدعى سعيد ويلقبه أصدقاؤه ب:"سعدية" لأنه معروف بشذوذه الجنسي، سبق وأن ألقي عليه القبض بتهمة الشذوذ وتعاطي المخدرات قبل أزيد من سنتين وحاليًا هو يقطن لوحده في غرفة تتواجد بسطح بناية قديمة بحي شعبي معروف، سنداهم غرفته هذه الليلة، تمني لنا حظا موفقا.

أغلقت الخط وأنا لا أكاد أصدق ما سمعته،أمعقول أن يكون سعيد هو سفاح الما لا نهاية الذي انشغلنا بقضيته طيلة أشهر؟ ولو كان كذلك، فما هو دافعه لقتل البيدوفيليين إذا كان يتعاطى الشذوذ بمحض إرادته؟ ترى هل خانني حدسي في هذه القضية حينما اعتقدت أن أحد ضحايا البيدوفيليا أو أحد أفراد أسرهم هو القاتل - المعاقب؟

أم أن هناك سرا كبيرا يخفيه سعيد هذا، والأهم: ما هي علاقة الضحية السابعة بالبيدوفيليا؟ لقد أتعبتني هذه القضية – اللغز كما لم تتعبني كل القضايا التي تابعتها من قبل، صحيح أنني كنت رئيسة قسم الحوادث لمدة تناهز العامين، لكنني أعترف أنني لم أصادف قضية غامضة و محيرة إلى هذه الدرجة..

أمضيت الصباح كله وأنا أحاول الاتصال بعمر لأعرف إن كانوا قد نجحوا في إلقاء القبض على السفاح، لكن هاتفه لم يكن مشغلا، في المساء كنت في طريق عودتي إلى بيتي عندما هاتفني، كان صوته يشي بتعبه:

– عايدة، لم نجد القاتل اللعين في غرفته ليلة أمس، لقد هرب.. في المقابل عثرنا هناك على سلاح الجريمة الذي هو عبارة عن سكين من الحجم الكبير، وعلى مشرط يبدو أنه يستعمله من أجل التوقيع بعلامة المالانهاية على أجساد ضحاياه، لكنني أؤكد لك أنه مهما كان خيالك الإبداعي واسعا فلن تتمكني من تخيل ما وجدناه أيضا داخل غرفته، هذا القاتل مضطرب جدا..

قلت له وقلبي يخفق بشدة:

– ماذا وجدتم؟ بقايا بشرية؟

أجابني:

- وجدنا لسان الضحية الرابعة، وعيني الضحية الخامسة، ويد الضحية السادسة، محفوظة بعناية داخل مُجمد السفاح.

قلت بهلع:

- وماذا عن العضو الذكري للضحية السابعة؟

قال:

- نسيت أن أخبرك بأننا وجدناه ملقى في مدفأة الضحية، أعتقد أن الوقت لم يسمح له بأخذه معه كتذكار، علي أن أقفل الخط الآن، لقد عممنا مذكرة بحث على الصعيد الوطني ونأمل أن نضع هذا المجنون خلف القضبان عما قريب..

قبل أن ينهي الاتصال، قلت بلا شعور:

- عمر.. لست أدري لماذا أعجز عن تصديق أن سعيد هو نفسه سفاح الما لا نهاية، لَم لا يكون مجرد سارق أراد أن يقلد أسلوب السفاح في القتل؟

تنهّد وقال:

- كل الأدلة تدينه يا عايدة: آخر مكالمة، البصمات، سلاح الجريمة، المشرط، الأعضاء المبتورة.. ماذا تريدين أكثر؟ فلتصدقي أو لا تصدقي!

آلمتني الطريقة التي أنهى بها مكالمتنا، لكنني أدركت أنني تماديت قليلا في ممارسة التخمينات، في النهاية، كنت أعلم أن الجرائم من هذه النوعية غالبا ما تحمل بين طياتها مفاجآت كبرى أبعد ما تكون عن احتمالاتنا..

بحلول اليوم الثالث بعد الجريمة، تفاجأنا بالطريقة التي أنهى بها السفاح هذه القضية المروعة، كانت الشرطة قد تلقت إخبارية تفيد بأن المتهم الفار يتواجد بنزل حقير بإحدى المدن الصغيرة،كانت مدينة ساحلية لا تبعد كثيرًا عن مدينتنا وعن العاصمة، توجهت عناصر الشرطة القضائية إلى ذلك النزل لكن بعد فوات الأوان، لأن سعيد كان قد أقدم على الانتحار عن طريق تناوله لمزيج قاتل من المواد الكيميائية الخطيرة، خليط مكون من مبيدات حشرية وماء حارق أرداه قتيلا على الفور، اقتحم رجال

الشرطة غرفته بالنزل ليفاجؤوا به جثة هامدة، كانت الساعة الذهبية للضحية السابعة تلمع في معصمه، ربما علم بقرب وصول الشرطة إليه لذا أنهى حياته كي لا يلقى عليه القبض، من يدري؟

بعد انتحار سعيد أغلقت القضية دون أن نعرف دافعه، ولا كيف كان يتعقب ضحاياه ويجهز عليهم،ولا ما كان يقصده باختياره لعلامة اللا نهاية كتوقيع، إلا أنني كنت متأكدة من شيء واحد، هو أن لعنة سفاح اللا نهاية لن تنتهي أبدا، وكان إحساسي في محله..

أشعر بجوع رهيب هذه الليلة،وكأنني لم آكل شيئا منذ أيام، أخرج من غرفتي وأقصد المطبخ، وأكاد أن أصاب بنوبة قلبية وأنا أرى الطيف القاتل يسير على سقف المطبخ، أفرك عيني بقوة لكن شبحه يأبى أن يتلاشى، لأول مرة ألاحظ أنه يضع حول عنقه سلسلة تتدلى منها علامة الما لا نهاية، أغلق باب المطبخ بسرعة وأركض نحو غرفتي وأنا أطمئن نفسي بأن هلوستي هذه مردها إلى كوني استحضرته في ما خططته الليلة..

سأواصل الكتابة رغما عنك أيها الطيف البشع، حتى ولو انبعثتَ من أوراقي عشرات المرات..

سأواصل، إلى أن تستحيل رمادا متناثرا بين سطور روايتي..

***

كانت قد مرت قرابة أربعة أسابيع على آخر مرة هاتفني فيها عمر، خلالها وضعت استقالتي من الجريدة لأتفرغ لكتابة أعمالي الخاصة، طيلة مدة غيابه عن سمائي كان الاشتياق يقصفني، كم مرة اتصلت به، لكن المجيب الآلي كان ينهي أملي كلما أخبرني بأن هاتفه غير مشغل، وكم مرة تساءلت: أمعقول أنه كان مجرد سحابة صيفية عابرة في حياتي الكئيبة؟ إلى أن أتت تلك الليلة التي لم تكن تشبه سابقاتها..

ليلتها، رن جرس باب شقتي بلا انقطاع، هرعت لأرى من الطارق، كانت عقارب الساعة تتجه نحو منتصف الليل، نظرت من العين السحرية وفوجئت برؤيته واقفا أمام بابي، فتحت له بسرعة ودعوته إلى الدخول، كان وجهه غير قابل للتفسير كما لاحظت أنه ثمل جدا، عانقني طويلا قبل أن يقول:

- اشتقتك، اشتقت إلى عينيك البريئتين،اشتقت إلى ملمس شعرك الحريري، اشتقت إلى عطر أنفاسك..

نظرت إليه بعتاب وقلت:

- إذن لِمَ الغياب؟

أجابني:

- اعذريني يا حبيبتي، أنت تعرفين ظروف عملي..

جلسنا، كان في عينيه البنيتين الواسعتين تعبير غريب، فجأة، خلع قميصه الأسود وألقاه فوق الأريكة قائلا:

- الحرارة مفرطة هذه الليلة، أليس كذلك؟

كانت أول مرة ألمح فيها صدره العاري، المشدود، المغري بالموت فوقه، اقترب مني وأحرقني بجمرات قبله قبل أن يتوقف وهو يقول:

- اعذريني.. يجب أن أنام، هل يمكنني أن أقضي الليلة هنا؟

قلت:

- اعتبر شقتي شقتك الخاصة، اتبعني..

قام بصعوبة، سحبته من يده نحو غرفة النوم، قبل أن ندخل، قال لي بصوت متهدج:

- عايدة.. لا أستطيع..

ابتسمت له مشجعة، دخلنا وجلسنا على حافة السرير، ظل يحدق بي قبل أن يشرع في تقبيلي مجددا، كان يهم بفتح أزرار قميصي حين تراجع، صمت لبرهة ثم قال:

- أريدك أن تبقي طاهرة..

سألته باستغراب شديد:

- متى كان الحب يدنسنا؟

لم يجبني، دفن رأسه في صدري قبل أن ينام ويتركني وحيدة أتلظى بنار الاشتهاء، عدلت وضعيته ونمت وأنا أحيطه بذراعي..

لم نمارس الحب ليلتها.. بقدر ما مارسنا الحلم..

كان يغط في نوم عميق بينما عجزت عن النوم بسهولة، بقيت أتأمله، كان يبدو كرضيع غفا على صدر أمه، استدار فلمحت وشما يتوسط كتفيه، كان الوشم عبارة عن جملة باللاتينية قرأتها بصعوبة بالغة: **Numquam obliviscere Numquam ignosce.**

غلبني النعاس فاستسلمت له، كانت تلك أول مرة يعبر فيها الطيف القاتل إلى أحلامي، كان كابوسًا جد مرعب، رأيت نفسي داخل نفق طويل ومظلم، كنت أسير فوق أكوام من الجماجم، وعلى حين غرة، خرج الطيف القاتم من الظلام وهمس لي:

" أنا القاتل الشبح، أنا جامع الجماجم "..

أفقت وأنا أرتعش، وصدمت عندما لم أجد عمر إلى جانبي، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا، قمت لأبحث عنه في المطبخ والحمام، بغتة، لفتت انتباهي نسخة من روايتي تاريخ النسيان موضوعة فوق مكتبي، فتحتها، وصعقت حين وجدت صفحة الإهداء ممزقة، كانت النسخة التي أهديتها لعمر، اعتقدت أنه يمازحني، أمسكتها و بدأت أقلبها، إلى أن سقط قرص مدمج من بين صفحاتها، شغلته، وجلست لأسمع ما لم أتخيل أبدا أنني سأسمعه يوما، كان صوت عمر،وكان أبشع تسجيل صوتي سمعته في حياتي:

" صباح الرعب عايدة..

تظنين أنك تعرفين عمر جيدًا ، أليس كذلك؟

أنا ذاكرته المبتورة، المنسية..

سأوضح لك أكثر، لا شك في أنك سمعت من قبل المقولة الشهيرة: " ذاكرة الدائن أقوى من ذاكرة المدين". أنا أكون "الدائن". لهذا تغلبت على عمر الضعيف بعد سنوات من الصراع الداخلي لأتمكن أخيرًا من استخلاص ديوني، لأنني" لا أنسى و لا أسامح" كما تقول العبارة التي اخترتها كوشم، والتي لا شك في أنك قرأتها بين كتفي عمر..

سأبوح لك بسر، أنا أكون سفاح الما لا نهاية، القاتل الظل الذي يعود إلى مسرح الجريمة – جريمته دون أن يثير شك أحد، لأنه محمي بقوة القانون، و المفارقة أنه نفس القانون الذي لم

يحمه ولم يحم الأطفال أمثاله الذين تعرضوا للاستغلال الجنسي، والذين أهدرت القوانين المجتمعية والقوانين الوضعية القاصرة حقوقهم، أتدرين، كنت طفلا صغيرا على الوجع حينما اعتدى علي صديق والدي وأفقدني رجولتي وابتسامتي إلى الأبد، وهل تعلمين ما هو أسوأ شيء يحصل للطفل – الضحية؟ أنه يكبر لكن ذاكرته لا تشيخ أبدا، لذا يستمر في استرجاع مشهد الاعتداء الشنيع الذي تعرض له، والذي دمر حياته ووشم ذاكرته إلى الأبد، رغم أن مدته لا تتعدى دقائق معدودة، بضع دقائق من المتعة المريضة، المنحرفة، قتلت طفولته وبراءته وأحالته شبحا بذاكرة تأبى أن تنسى قبل أن تقتص، هل فكرت من قبل في ما تؤول إليه حياة الأطفال المغتصبين، وكيف يستمرون في الحياة ومغتصبوهم أحياء يتنفسون؟ هل لك أن تتصوري أن كل نَفَس يأخذه البيدوفيلي المريض يزعجهم ويجعلهم يتمنون لو أن جريمة اغتصابهم أعقبتها جريمة قتلهم ليتحرروا من عذابهم ومن ذكرياتهم القاتمة؟ ربما لهذا السبب يحاول معظم الأطفال – الضحايا بتر ذاكرتهم، دون أن يعوا أن الذاكرة تتماهى في أحايين كثيرة مع عضو لا يجدي بتره نفعا، لأنه يتجدد تلقائيا ويعوض نفسه بنفسه في كل مرة نحاول فيها أن نقطعه بسيوف النسيان، وكان هذا هو الخطأ الذي ارتكبه حبيبك عمر، سأحكي لك قصته – قصتي بما أنك تعشقين القصص، لكن الفرق بين قصتنا وبقية القصص أنها حقيقية جدا:

كان عمر في السابعة، و كان لوالده صديق مقرب جدا كان يثق به ثقة عمياء، دون أن يدرك أن من يؤذوننا في غالب الأحيان هم أولئك الذين نثق بهم بلا حدود، أعتقد أنك خمنت هوية صديق والده، إنه "منصف سراج الدين"، رجل السياسة الذي يمارس الدجل السياسي و يتظاهر بالورع و التقوى ليخفي وراءهما اضطرابه الجنسي المتطرف، كان منصف الذئب قد طلق زوجته الأولى بعدما اكتشفت أنه عقيم، و كان يتردد على منزلنا باستمرار، و في كل مرة كان يجلب لعمر ألعابا كثيرة و لعب معه لساعات، كان والداه يعتقدان بسذاجة أنه يعتبره كابنه، لكنه في الحقيقة كان يراه مجرد لعبة جنسية بإمكانه أن يتسلى بها كما أراد و أن يفعل بها ما لا يتجرؤ على فعله مع الكبار، ولتنفيذ خطته، بدأ يصطحبه معه في نزهات، إلى أن جاء ذلك اليوم اللعين الذي أخذه فيه إلى إحدى الغابات، أوقف سيارته واغتصبه فوق مقعدها الخلفي، ذاك المقعد الذي تلطخ بقطرات من دمه، ذاك المقعد الذي شهد موت عمر المعنوي، وأنت تعلمين أن الموت المعنوي أقسى بكثير من الموت الحقيقي..

في ذاك اليوم، كانت صدمة عمر تفوق ألمه الجسدي بدرجات..لكنه لم يخبر والديه بما حدث، لأنه كان يحس بالذنب كونه لم يقاوم الوحش، و كان خائفا من ألا يصدقا أن صديق العائلة قد تحول إلى ذئب سفك دم ابنهما في تلك الغابة المخيفة، حاول أن يحمي ذاكرته بالنسيان، حاول جاهدا إلى أن نسي أكثر مما يجب، لأن لعبة حذف اللقطات المؤلمة من الذاكرة

لعبة خطيرة جدا، لعبة كثيرًا ما تحذف شريط ذكرياتنا بالكامل، لكن مع ذلك، تبقى الذكريات المحذوفة مخزنة في منطقة لا وعينا، تلك المنطقة التي أشبهها بسلة مهملات الحواسيب التي تحتفظ بالملفات والصور حتى بعد رفضنا إياها..

أشعر بأنك تريدين أن تعرفي كيف كنت أوقع جرائمي – تحفي، سأشبع فضولك الصحفي قليلا، حينما انبعثتُ من رماد الذاكرة، بعد أن أيقظني استشراء جرائم البيدوفيليا مؤخرا في مجتمعنا، والعقوبات غير الرادعة في حق مرتكبيها المرضى، أقسمت بأن أطبق عدالتي الخاصة في حق مغتصبي، لكن قبل أن أقتله قررت أن أطور قدراتي في القتل عن طريق أخذ عينات إجرامية، و شرعت في البحث عن ضحايا تجريبية ساعدني في الوصول إليها عمل عمر كشرطي، بإمكانك القول إنني استعملت عمر كوعاء لأنفذ جرائمي بسهولة مطلقة، لا أخفيك أنني كنت أتحرق شوقا لحصد روح منصف الحقير، إلا أنني آثرت الصبر، لأنني أؤمن بالمثل القائل: " الانتقام طبق يفضل أكله باردا.."

قضيت أشهرا و أنا أراقبه، و أراقب حبيبه سعيد، لن تتخيلي كم كنت أتعذب كلما رأيته يستمتع بحياته كأنه لم يفعل شيئا..المؤلم هو أن المغتصب ينسى بسرعة كيف قلب حياة الطفل – الضحية في لحظات، إلا أن الطفل لا ينسى أبدا، ولهذا اخترت أن أوقع على الأجساد النجسة لضحاياي بعلامة اللا لا نهاية، لكن لا أحد فهم أنني أردت تنبيهكم إلى أن الاعتداءات الجنسية تبصم حياة الأطفال – الضحايا إلى الأبد..لم تفهموا

رسالتي ببساطة لأن لا أحد يكترث لهؤلاء الأطفال أو يفكر في مساعدتهم، ولهذا، ذات يوم قريب، سيستيقظ الدائن الكامن بداخل كل طفل لم يمد له المجتمع يد المساعدة، ولم ينصفه القانون..

لن أطيل عليك كثيرًا، في الليلة التي قطفت فيها روح منصف، تسللت إلى إقامته الثانوية البعيدة عن الأنظار والتي كان يخصصها لممارسة اضطراباته الجنسية، ارتديت قفازاتي وجهزت سكيني، وجلست أنتظره في الظلام كما ينتظر الوحش فريسته، أتعرفين أنني شعرت بالانتشاء لأنه بعد مرور كل هذه السنوات استطعت أن أقلب الأدوار وأن أسحب منه دور الوحش؟ ما إن دخل إلى البيت، حتى انقضضت عليه، وضعت سكيني على عنقه قائلا:

- تدين لي بالكثير منذ مدة طويلة جدا..وقد آن الأوان لتسدد دينك..

كان مرتعبا، ظن للوهلة الأولى أنني أريد فقط أن أسرقه، قال لي:

- خذ ما تشاء لكن لا تؤذني..

تفاجأ حين ضحكت وقلت له:

- لست سارقا أيها العجوز القذر، أنا ذاكرة عمر، أتذكر عمر ابن صديقك الذي اغتصبته قبل سنوات؟

أخرسته المفاجأة، دسست يدي في جيبه و بحثت عن هاتفه، أعطيته إياه و أمرته بأن يتصل بعشيقه الشاذ سعيد و يطلب منه أن يلتحق به، هاتَفه و حدثه بصوت مرتعش طالبا منه ألا يتأخر عليه لأن رغبته الجنسية جد قوية، و ما إن أنهى مكالمته حتى أجهزت عليه، كان يلزمني أن أسرع قبل أن يأتي سعيد الذي

ساعدني غباؤه كثيرًا لألصق به التهمة، قطعت عضو منصف القذر و ألقيته في المدفأة، لم يكن أمامي متسع من الوقت لأستمتع بحرقه، قصدت غرفة النوم، حطمت الخزانة و كنت متأكدا من أن سعيد سيبتلع الطعم وسيقدم على السرقة لأنني أعرف الحثالات جيدا، ثم انطلقت نحو غرفة سعيد الحقيرة وزرعت الأدلة بعناية، كنت متيقنا من أنه لن يعود إلى مسكنه وأنه سيفر، وتحققت توقعاتي، إلا أنني لم أتوقع أنه سيساعدني إلى هذا الحد و سيقدم على الانتحار ليكون ضحيتي الثامنة بشكل غير مباشر..

عايدة، أكثر ما يضحكني أنك لم تنتبهي إلي رغم أنني كنت قربك طوال الوقت، لأنك رفضت أن تريني بسبب وقوعك في حب عمر الضعيف، المثير للشفقة، كنت عمياء لا ترين سوى ما ترغبين في رؤيته، قد تعتقدين أنني استغللتك لتكتبي عن إنجازاتي الإجرامية، لكنني أؤكد لك أنه لا يوجد شيء اسمه استغلال مطلق، هناك دوما مقابل للاستغلال، بما أنني أوحيت

لك بفكيرة روايتك القادمة، و كنت متأكدا من أنك ستنفذينها وستكتبين عن الصغار ضحايا البيدوفيليا..

من المؤكد أنك تسألين نفسك الآن من كنت تقابلين، من كان يزورك في شقتك الصغيرة الدافئة، و من أمضى ليلة أمس في سريرك، هل أنا أم عمر؟ لن تعرفي أبدا.. كل ما يسعني أن أخبرك به هو أنني قتلت عمر لأصير المسيطر و أحقق أهدافي، قد أبدو لك قاسيا، متحجرا، أنا كذلك بالفعل، لكن الحياة هي التي جعلتني مسخا مشوها، ظلمتني الحياة، و ظلمتني روح القانون العليلة، و ظلمني المجتمع الذي يقسو على الأطفال الضحايا أكثر مما يقسو على مستغليهم..

قبل أن أنسى..لقد أعدت لك روايتك لأنني سبق و قرأتها فور صدورها و لم ترقني لأن بطلتها غبية جدا، ما كان عليها أن تستسلم للنسيان، أتعلمين، أسوأ ما قرأت في حياتي كلها هو قولك على لسان بطلتك: "على النسيان أن يكون ثوريا، أن يصرخ في وجه الحب المستبد المعلق بأهداب الذاكرة: ارحل.."، كان حريا بك أن تقولي العكس، لأنني مقتنع بأنه على الذاكرة أن تكون ثورية، لتُسقط النسيان و تتمكن من تصفية حساباتها العالقة منذ سنين، بالنسبة إلي، أعظم الثورات هي تلك التي تقودها الذاكرة ضد النسيان..

أتدرين، أنا أتتبعك منذ زمن طويل، و لم يأت اختياري لك اعتباطا، صدقيني، لا يوجد شيء اعتباطي في هذه الدنيا، أردتك

أن تخلدي أعمالي الفنية في روايتك القادمة، و أردتك أن تظهري للعالم إلى أي مدى يمكن أن يضطرب الطفل ضحية البيدوفيليا، أعتذر لأنني قمت باستغلال عمر لأصل إليك، ما كنت أعلم أنك ستكونين ضحية لحبه، عزائي أنك أنثى تجيد ممارسة النسيان، لذا ستنسين حتما هذه الحادثة القلبية، مثلما نسيت بطلتك البليدة كل ما يتعلق بماضيها الموجع، بالمناسبة، بطلتك تشبهك كثيرًا، أظن أنك جعلتها المرأة التي تتمنين أن تكونيها، امرأة بلا ذاكرة..

عايدة، مضطر لتوديعك، أرجو ألا تحاولي ربط الاتصال بعمر لأنه لم يعد موجودا بما أنني احتللت جسده، في هذه الأثناء، قد أكون بعيدا عنك، أحلق صوب بداية جديدة بعدما دفعت عمر إلى الاستقالة من عمله الممل بدعوى أنه قد حل قضية عمره، وأنه لم يعد قادرا على الاستمرار..

أتمنى أن تتحقق أمنيتك المستحيلة في النسيان..

ملتقانا في الجحيم!"

***

ظللت تحت وقع الصدمة، رافضة تصديق ما سمعته، بكيت كما لم أبك من قبل، وانتابتني أحاسيس متناقضة، لا أنكر أنني تعاطفت كثيرًا مع عمر وشعرت بمعاناته النفسية الطويلة، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من كره الطيف القاتل أو "الدائن" كما يلقب نفسه، لأنه استعمل عمر كوعاء ليحقق أهدافه قبل أن يتخلص منه..

لم أتصور قط أن الاعتداء الجنسي على طفل قد يسبب هذا الاضطراب الخطير جدا في شخصيته ووعيه، كنت أدرك أن الآثار النفسية البعدية للبيدوفيليا سيئة للغاية، لكنني لأول مرة أعلم أن هذه الاعتداءات الشنيعة تدمر شخصية الطفل التي تكون لا تزال في مرحلة البناء، وتستعمر ذاكرته الرافضة للنسيان إلى الأبد.

تساءلت: لماذا لم تلاحظ والدة عمر التغير الطاريء عليه؟ ليتها شكت في تعرضه لاعتداء وحشي من طرف صديق والده، حينها ما كان عمر ليكبر وتكبر ذاكرته الانتقامية معه، ويصبح ما هو عليه الآن، مجرد شبح..المشكلة هي أن العديد من الأمهات والآباء لا

يلاحظون تعرض أبنائهم لاعتداءات جنسية أبدا، أو في أفضل الأحوال، يلاحظون ذلك بعد فوات الأوان.. بعدما تتشوه شخصيات الأطفال – الضحايا إلى حد تعجز فيه المساعدة النفسية عن تجميلها.. وما الدائن سوى نموذج لتشوه وتشظي شخصية الطفل المغتصب..

أذكر أنني كتبت ذاتَ مقال أنه لا تقادم في الذاكرة، في ذلك اليوم رأيت تجسيد ما كتبته، وتأكدت من أنه هناك نوع من الذاكرة يتغلب علينا مهما طال الزمن، مثلما تغلبت ذاكرة عمر عليه، لينتصر الدائن في النهاية..

تمنيت حينها أن أهدم جدار ذاكرتي بمعاول النسيان، لأنسى ذلك الكابوس الحقيقي، إلا أنني كنت أعي أنه يستحيل أن تدعني ذاكرتي أغرق في بحر النسيان، بعدما استنتجت من قصة الدائن المرعبة أن ذاكرتنا هي التي تتحكم بنا، لا العكس..

أفقت من ذهولي، وشغلت القرص المدمج الذي أهداني إياه عمر، لأستمع إلى أغنيته "وحدن"، علني أفك شيفرة كلماتها الحزينة، القاتمة، المخيفة، انتبهت إلى أنه كان محقا حين قال لي إنها تعبر عنه بشكل ما، أصخت السمع، و أحسست بأنني بلغت من الوحدة والحزن عتيا:

"وحدن بيبقوا..

مثل ها الغيم العتيق..

وحدهن..

وجوهن و عتم الطريق..

عم يقطعوا الغابه..

و بإيدهن مثل الشتي يدقوا..

البكي و هني على ابوابي..

يا زمان..

من عمر في العشب ع الحيطان..

من قبل ما صار الشجر عالي..

ضوي قناديل و انطر اصحابي..

مرقوا..

فلوا.. بقيت ع بابي لحالي..

يا رايحين و الثلج..

ما عاد بدكن ترجعوا..

صرخ عليهن بالشتي يا ذيب..

بلكي بيسمعوا.."

***

بعد رحيل عمر، شعرت بأن قنبلة فراغية ضربت أعماقي، وأفرغتني من كل ما كنت أحيا لأجله.. قضيت مدة طويلة وأنا أفكر فيما سأفعله، كنت عاجزة عن الاستمرار في السكن بشقتي الصغيرة، تلك الشقة التي أصبحت الذكريات المبثوثة في أركانها تؤرق مضجعي، ولهذا ارتأيت أن أودعها وأعود إلى مسقط رأسي لأحاول أن أنسى، بكل ما أوتيت من نسيان..

بحلول فصل الخريف ذبلت أحلامي..

وبحلول هذا الفصل الغادر، عدت إلى بيت أسرتي، ممسكة بحرص شديد ما خف حمله من ذكريات..

قبل عودتي إلى مدينتي الشبح، أمضيت ساعات طويلة من البحث في الانترنت عن اضطرابات الشخصية لأكتشف مرض عمر، ذاك المرض الذي أصاب شخصيته بالتشظي، وصدمت حينما عرفت أنه

يعاني من اضطراب "تعدد الشخصيات" الذي كثيرًا ما يتم الخلط بينه و بين " الشيزوفرينيا "..

قرأت أن هذا الاضطراب النادر يدخل في إطار الاضطرابات التفارقية، وهذا يعني أن المصاب بهذا المرض تكون له شخصيتان أو أكثر.. وفي بعض الحالات المتطرفة قد يخلق المريض عدة شخصيات بهويات مختلفة و حيوات مستقلة، لفتتني حالة فتاة تعرضت للبيدوفيليا مما سبب شرخا كبيرا في شخصيتها وجعلها تخلق ست شخصيات رمزية، من بينها شخصية فتى ليحميها من الاعتداءات الجنسية، وقرأت كذلك أن هذا الاضطراب الخطير يتسبب في انشقاق شخصية المريض، ولهذا تغير اسمه مؤخرا وصار يطلق عليه:

" اضطراب الهوية الانشقاقي ".

خلصت بعض الأبحاث إلى أن المريض يشعر بعجز عن مواجهة صدمة كبرى، ويجد صعوبة كبيرة في التكيف معها، لذا، يلجأ إلى ابتكار شخصية أو شخصيات أخرى ليتمكن من مواجهة الصدمة التي دمرت شخصيته الحقيقية، ولهذا السبب تكون الشخصيات الجديدة مناقضة لشخصية المريض، وتتسم بالعدوانية و العنف، وقد تصل حد ارتكاب جرائم مروعة، لأن المصاب بهذا الاضطراب يشكل خطرا على محيطه و على نفسه..

أكثر ما أثار انتباهي خلال بحثي، أن من بين أعراض اضطراب الهوية الانشقاقي فقدان الذاكرة المرتبطة بالحدث – الصدمة، وعدم القدرة على تذكر الأحداث بمعدلات تفوق النسيان العادي، تابعت البحث وذهلت عندما قرأت أن ظهور هذا المرض مرتبط في غالب الأحيان بحدوث صدمات نفسية جد قوية في مرحلة الطفولة، صدمات على رأسها الاستغلال الجنسي للطفل، حيث إن الدراسات تؤكد أن العديد من الحالات كانت قد تعرضت للبيدوفيليا وعجزت عن استيعاب الصدمة، ولهذا اختارت فصل ذكرياها وتجارها المؤلمة عن وعيها، الشيء الذي خلق اضطرابا في بنية شخصيتها التي تكون في مرحلة التطوير،إذ تقول النظريات إن الطفل الذي يتعرض لاعتداء مؤذ يقوم بنقل الذكريات والأحاسيس المرتبطة بالحادث إلى منطقة لا وعيه، إلى أن تتطور حالته و تصير ذكرياته وأحاسيسه كيانا مستقلا قائما بذاته..

بالفعل، بتر الذاكرة غير مُجْد البتة كما قال الدائن، لأنه قد يأتي يوم تتجسد لنا فيه ذاكرتنا الانتقامية لتذكرنا ها وتعاقبنا على محاولتنا اغتيالها..

***

" كلشي عم يخلص..

وجوه الأصحاب..

كلشي عم يخلص..

ضحكات الأحباب..

و العيد رح يخلص..

و أنا ب ها العيد..

وحدي يا حبيبي..

و انت بعيد.."

- أغنية " كلشي عم يخلص" للسيدة ماجدة الرومي.

أفقت على وقع الوجع، بعدما تذكرت أن اليوم يصادف الذكرى الثانية والعشرين لرحيل والدي، غريب كيف أن ذكرى اغتياله تصادف عيد الحب، بالنسبة إلي، عيد الحب مرتبط بذكرى وفاة أغلى إنسان لدي، لذا هذا اليوم ليس في الحقيقة سوى عيد للحزن، عيد للفقد، عيد تستعر فيه نيران وجع الغياب أكثر فأكثر.. عاما بعد عام.

فقط لو ظل والدي إلى جانبي، لو أنه لم يقرر دخول حرب خسر فيها حياته، لو أنه كان اليوم معي، لو...

أدرك أن كلمة " لو" ليست بكلمة سحرية، تخول لنا الدخول في آلة سفر عبر الزمن لنعود إلى زمان سابق، ونحاول بكل ما أوتينا من حلم أن نتجنب حدوث أشياء غيرت مسار حياتنا إلى الأبد، إلا أنني لا أستطيع منع نفسي من تخيل ما كانت ستؤول إليه حياتي لو كان والدي هنا، ليحميني، لينقذني، ليمد لي يده الحانية و يلتقطني في كل مرة أسقط في دروب الحياة الشائكة، لينتشلني من آبار الحزن، والأهم،ليفتخر بابنته وهو يراها تحذو حذوه، عساها تتمكن من تحقيق أحلامها – أحلامه..

"لو" ..كلمة من حرفين،تفتح أبواب الاحتمالات على مصراعيها، دون أن تغير شيئا، ولا أن تمحو سطرا من كتاب خساراتنا لتمنحنا فرصة خط سطر جديد عوضه، بقدر ما تنجح في تركنا تائهين إلى ما لا نهاية، في جزيرة الوهم..

اليوم، يحتفل العالم بعيد الفالنتاين، دون أن يفكر أي من المحتفلين أنه من الممكن أن يجد نفسه في ذات اليوم من العام التالي، يُعاقر الحزن..

في ما يخصني، اعتدت الاحتفاء بالحزن منذ زمن طويل.. لأنني اقتنعت بأن كل فرح يحمل بين طياته حزنا، و كل لحظة سعادة عابرة قد تنقلب إلى شقاء أبدي دون سابق إنذار، و لهذا تعايشت مع حزني – قدري..

أنا الأنثى المُعَمدة بماء الحزن..

أنا الأنثى التي صار قلبها شبيها بمدخنة عتيقة، بعد أن فقدت كل أحبائها، وأمسى الحب في نظرها، مرادفا لألم الفراق..

أنظر إلى ساعتي، إنها الحادية عشرة صباحًا، أقرر أن أذهب لزيارة والدي الذي لم أزره منذ مدة.. أُغيّر ثيابي بسرعة وأغادر البيت، أسير بلا توقف إلى أن أصل إلى المقبرة التي يرقد تحت ترابها، أقف أمامه في صمت، غريب كيف ينضب معين كلماتنا فجأة في حضرة الموت، أخيرًا أكفكف أدمعي بعدما أتذكر أنه لم يكن يطيق رؤيتي وأنا أبكي عندما كان على قيد الحياة، أنظر طويلا إلى قبره البارد وأهمس:

– أفتقدك كثيرًا.. ليتك كنت معي، ما كانت الكثير من الأشياء لتحدث..

وحدهم الموتى لا يحتاجون إلى أن نتكلم بصوت عال، لنؤكد لهم صدق أحاسيسنا تجاههم..

أودعه وأخرج من المقبرة، أقرر أن أعرج على الأماكن التي كان يأخذني إليها، لأحيي ذكراه، ذكراه التي نسيها جميع أقربائه وأصدقائه.. باستثنائي..

مخطئ ذاك الذي يعتقد أنه مع مرور الوقت تخف زلازل الألم الباطني، وتخبو جمرات الاشتياق إلى شخص توقف قطار حياته في محطة العمر الأخيرة قبلنا بسنوات، لأنه في حالتي كلما انضافت سنة إلى عَداد سنوات فقده، يتغلغل الحزن بداخلي أكثر..

أمر بمحاذاة الأمكنة التي كان يأخذني إليها قبل أن يأخذه الموت مني، تستوقفني حديقة الألعاب التي تعج بذكريات طفولتي السعيدة، القصيرة.. اليوم، الحديقة مهجورة و مغلقة، بعد أن تم تفويت الأرض التي تقوم عليها بثمن بخس إلى مقاول نافذ، سيهدم ذكرياتي الطفولية ليقيم على أنقاضها أحد مشاريعه، دون أن يعي أنه يستحيل أن يهدم ذاكرة الأمكنة اللصيقة بي..

أتابع السير إلى أن أصل إلى الشاطئ، أجلس في إحدى المقاهي المتناثرة على جنباته، فيتراءى لي والدي وهو يشيد لي قصرا رمليا، كم كنت أكره رؤية الأمواج وهي تدمر قصري الرملي، الآن، أعلم علم اليقين أن تلك الأمواج المدمرة لا تختلف كثيرًا عن أمواج الحياة التي تُقوض أحلامنا، وتغدر بآمالنا..

أحس برغبة ملحة في الكتابة، وكأن الحزن هو محرك الكتابة الوحيد، مرت أسابيع على آخر مرة خططت فيها شيئا.. أفتح حقيبتي اليدوية وآخذ منها دفتر ملاحظاتي السرية، وأشرع في الكتابة وأنا أحس بأنني أتماهى مع مجنونة منحوها في مصح عقلي ورقة وقلما لتعبر عما يجول في ذهنها المضطرب، أكتب:

" توجد أمكنة شهدت فصولا مختلفة من حياتنا، أمكنة باستطاعتها أن تعيد شريط ذاكرتنا إلى الوراء ليستعرض لقطات خلنا أن رقابة عقولنا قد حذفتها إلى الأبد..

توجد أمكنة مشوبة بالغموض، لذا نجد أنفسنا نحج إليها رغما عنا، و رغما عن أن هذه الأمكنة قد خلفت لنا ذاتَ ذكرى بعيدة رُزمة أوجاع، بعدما أهدتنا لحظات سعادة عابرة..

توجد أمكنة عُزفت فيها سيمفونية فرحنا، قبل أن تُؤَلف فيها موسيقانا الجنائزية، لكننا مع ذلك نجد أنفسنا نعود إليها بعد أن تستدرجنا إليها نوستالجيا كل تلك الأشياء المؤلمة..

توجد أمكنة تصيبنا بالرُهاب كلما مررنا بمحاذاتها، لأنها أمكنة مغلقة على أحلامنا وأوهامنا، ولأن ارتفاع منسوب وجع الماضي فيها شاهق، لذا نحاول الهرب منها بسرعة كي لا نتأذى..

توجد أمكنة تقذفنا بزجاجات الذكريات الحارقة في كل مرة تقودنا أقدامنا إليها، أمكنة غدرت بنا و بأمانينا، و مارست علينا لعبة التوهيم لتضيفنا إلى لائحة ضحاياها..

توجد أمكنة كُتبت فيها بداية حكايتنا، مثلما كُتبت فيها نهايتنا غير المتوقعة، و كأن قدرنا هو أن تنتهي حكايتنا في نفس المكان الذي بدأت فيه، ليصير مكان ولادة و دفن قصة حلمنا..

توجد أمكنة تنادينا لنزورها لعلنا نحيي ذكرى أحبائنا الذين مشوا فوق ترابها، قبل أن يرقدوا تحت الثرى، تاركين جزءا من أرواحهم عالقا بتلك الأمكنة التي كانوا مرتبطين بها ارتباطا عاطفيا..

توجد أمكنة يتم طمس معالمها التاريخية، و تشويه ملامحها المميزة، لكننا كلما مررنا بالقرب منها نجد أنفسنا ندخل في عالم مُواز ونتخيل ملامحها القديمة الموشومة في ذاكرتنا الطفولية..

توجد أمكنة كثيرًا ما قصدناها طواعية، قبل أن نودعها ونقسم بألا تطأها أقدامنا ما دام فينا نفس يتردد، ثم نجد الصدف تجرنا إليها عنوة، لندرك أن حياتنا مرتبطة بشكل ما بتلك الأمكنة..

توجد أمكنة تنتابنا مجموعة أحاسيس متناقضة كلما جددنا معها موعد الوصال، أمكنة تصيبنا التناقضات المقيمة فيها بدوار لذيذ، و تجعل دوامة الدهشة الأولى تبتلعنا..

توجد أمكنة تصيبنا بخدر الذكرى، وترسم على وجوهنا ابتسامة الحنين إلى أولئك الأشخاص الذين تمنينا أن تتوقف عقارب الزمن ليظلوا قربنا، قبل أن نستفيق من أحلام يقظتنا، على طعنات الوجع..

توجد أمكنة لا نعرف حقا لماذا نصر في كل مرة على العودة إليها، كما يعود المجرم إلى مسرح جريمته،كل ما نعرفه أننا نشعر بالانتماء إليها، وأنها قطعة منا يصعب علينا بترها.."

أعنون النص الذي كتبته تحت تأثير الحزن الملهم ب:

" وجع الأمكنة"، و أغلق دفتري و أنا أفكر في أن قدر بعض النصوص ألا تخرج إلى العلن يوما..

لطالما تمنيت لو كان باستطاعتي أن أفرغ ذاكرتي بين طيات ورقة أضعها داخل قارورة شفافة

وألقي بها إلى البحر، دون أن تهمني هوية من سيعثر عليها، غير أنني أعرف أن هناك كتابات مصيرها أن تقبع في ظلال دفاترنا السرية، حتى بعد رحيلنا..

***

فجأة. أتوقف عن السير أمام مدخل مدينة تشير لافتة ضخمة إلى أنها "مدينة النسيان"، أفكر في أن أدخل إليها لأمارس هواية الاستكشاف، وما إن تطأها قدماي حتى تتراءى لي لافتة بيضاء كتب عليها: "العيش مع صندوق الذكريات عقوبة سالبة لحريتك.."، أتأمل قليلا معنى هذه الجملة الغريبة،قبل أن يربت أحدهم على كتفي، أستدير فأرى رجلا ضخم الجثة، يبتسم لي قبل أن يطلب مني أن أودع حقائب وصناديق ذكرياتي في مصلحة النسيان كي يُسمح لي بأن أصير من ساكنة المدينة التي طلبت اللجوء إلى النسيان هربا من سراديب الذاكرة، أهز رأسي نافية وجيبه بأنني لا أحمل معي أي ذكريات، يقهقه طويلا ثم يقول:

– تريدين أن تقنعي نفسك بذلك، غير أنك في الحقيقة مثقلة بذكريات الماضي القاسي، لكن لا أمانع في أن أرى ما إذا كانت ستنجح مفاوضاتك مع النسيان..

يمسكني من يدي ويأخذني لأتجول في هذه المدينة التي تبدو لي كما لو كانت تجسيدا لمدينة أحلامي الطفولية، نعبر ضبابا كثيفا كي نصل إلى نهر طويل جدا، تلفتني القوارب الزرقاء الصغيرة التي تقطعه ليترل منها رجال ونساء يحملون صناديق خشبية باهتة، وحقائب جلدية قديمة، يسلمونها تباعا إلى رجل يشبه كثيرًا الرجل الغامض الذي يرافقني، أسأل مرافقي:

– من أنت؟

يبتسم ويجيب:

– أنا حارس من حراس مدينة النسيان التي لا تغرب شمسها أبدا..

أرفع رأسي إلى السماء المُزدانة بقوس قزح، وأنتبه إلى أنها ممتلئة بمناطيد ملونة،أنظر إلى حارس المدينة الضخم مستفسرة، يرفع حاجبيه ويشرح لي أن هناك أشخاصا يصلون إلى المدينة عن طريق عبور نهر النسيان، أو بعد أن يحلقوا في سماء النسيان مستعينين بمنطاد، أو كما في حالتي، برا عبر تجاوز طرقات الذاكرة، أطلب منه التوضيح أكثر، يتنهد قبل أن يقول بعصبية:

– طريقة الوصول إلى هنا تختلف حسب سرعة كل شخص في قطع أشواط كبيرة نحو النسيان..

أتأمل البيوت المطلة على النهر، ثم ألتفت نحو الحارس متسائلة:

– أين سأقيم؟

يشير إلي كي أتبعه، نترل درجا حجريا طويلا إلى أن يتوقف أمام بيت شاسع بواجهة

زجاجية كبيرة، تحيطه حديقة بها أشجار عملاقة تعلوها زهور بيضاء، وقبل أن ينصرف، يسلمني مفتاحا ذهبيا وهو يقول:

– هنا بيتك الجديد، أتمنى أن تلتزمي بقوانين مدينة النسيان، التي على رأسها التوقف عن نبش قبور الذاكرة، ومقاومة المد العالي للذكريات..

أدير المفتاح في الباب، وأدخل إلى البيت، يروقني أثاثه الفاخر، وتلفت انتباهي إطارات صور فارغة معلقة على الجدار المؤدي إلى الطابق العلوي،أصعد الدرج و أنبهر بغرفة النوم ذات السرير الأبيض الواسع، أواصل جولتي في البيت، وبغتة يثير فضولي باب حديدي رمادي في آخر الممر، أتوجه نحوه وأحاول فتحه، ينفتح بصعوبة بالغة لأجد نفسي داخل غرفة تحميض مخيفة، أمعن النظر في الصور الملقاة على أرضها، وأهلع وأنا أكتشف أنها صور جثث رجال تعرضوا للذبح، أغادر غرفة التحميض مسرعة وأعود إلى غرفتي، أتداعى على السرير وأنا أحاول أن أطرد صور الرجال القتلى من مخيلتي، يخفق قلبي بشدة بعدما تعلو الحائط لوحة متحركة لطفلة باكية، تشكل دموعها جدولا صغيرا على الأرضية، ثم أنتبه إلى وجود صندوق

خشبي كبير، أقوم من مكاني وأتقدم نحوه بخطى مترددة، أفتحه بيدي المرتجفتين وأتفاجأ عندما أجد بداخله الرداء الأسود الطويل الخاص بالدائن، وسكينه اللامع، أركض خارج الغرفة وأنزل إلى الطابق السفلي، وأسقط أرضا وأنا أرى الإطارات الفارغة تمتلئ تدريجيا بصور والدي وبصور عمر، تنكسر الواجهة الزجاجية للبيت وتتطاير شظاياها بالقرب مني، ويتحول البيت إلى رماد، أظل مشدوهة إلى أن يعود الحارس الضخم، يهزني من كتفي بقوة و هو يصرخ بغضب:

– أنت مطرودة من مدينتنا، لأنه بالنسبة إليك فات أوان النسيان بعد أن طوقتك ذاكرتك من كل جانب..

***

لا أدري كيف مرت الفصول بسرعة.. عدت إلى بيت أسرتي في الخريف، وها نحن اليوم على عتبة فصل الربيع، أنظر من نافذتي، السماء الممطرة والسحب الدخانية لا توحي بأن غدا هو أول أيام الربيع، أستمتع بمراقبة قطرات المطر وهي ترتطم بالزجاج، قبل أن أتذكر أن ذكرى التقائي بعمر لأول مرة قد اقتربت كثيرًا..

غريب كيف انقلبت حياتي رأسا على عقب بين ربيعين، في ربيع العام الفارط كنت أسعد أنثى على وجه الأرض، وما كنت أعلم حينها أنني سأصير الأنثى الأتعس على الإطلاق بحلول فصل الربيع الموالي، يبدو لي أن تغير الفصول يشبه إلى حد بعيد تغير حياتي..

ترى هل تصورت في مثل هذا الفصل من السنة المنصرمة، تلك السنة التي أهدتني الكثير من الفرح، قبل أن تُصادر مني كل شيء حلمت به، أنني سأكون واقفة هنا فوق أنقاض ذكرياتي؟

يجتاحني حنين عاصف إلى عمر، أين هو الآن؟ هل لا زال بوسعه أن يتذكر أول لقاءاتنا؟ آه لو كان بإمكاني أن أسمع صوته الغامض كتعويذة سحرية، أدرك أن أمنيتي هذه مستحيلة، لأنني حاولت الاتصال به مرارا و تكرارا،وفي كل مرة كانت تجيبني العلبة الصوتية، أبحث عن ديوان " أزهار الشر" لشارل بودلير، الذي أهداه لي حبيبي عمر ذات فرح، أقلب صفحاته عشوائيا، لأول مرة ألاحظ أنه وضع علامة صغيرة قرب إحدى القصائد المعنونة باللغة اللاتينية، أقرأ:

" أنا الجرح والسكين

أنا الضحية والجلاد

أنا عدو نفسي "

فجأة، أفكر في مراسلته لأطمئن عليه، متأكدة من أنه يحتاجني، ويحتاج إلى المساعدة، أفتح بريدي الإلكتروني لأبحث عن رسالته لي، تلك الرسالة التي عرفتني عليه.

أفاجأ باختفائها، أنقب عنها بلا توقف.. أتفحص حتى الرسائل القديمة وسلة المهملات، لا أعثر سوى على رسائل المعجبين وبعض المصادر، أفتش كالمجنونة، لكنها اختفت كما لو أنها لم تكن يوما، أنا

متيقنة من أنني لم أقم بمسحها، يتبادر إلى ذهني أن الدائن اللعين قد اخترق بريدي الإلكتروني ليمسحها ويخفي كل أثر لعمر، أحس بصداع قاتل، لم أعد قادرة على فهم ما يجري حولي، منذ مدة وأنا أشعر بأنني على حافة الانهيار، أتساءل:

هل بوسع الكتابة أن تنقذني من السقوط في غياهب الجنون؟

أرتمي فوق فراشي وأنا أنتحب، ليتني أتخلص من هذا الطيف القاتم الذي يوشك أن يفقدني عقلي بألاعيبه الذهنية، أتساءل: أمعقول أن عمر لم يكن له وجود سوى في استيهاماتي وتخيلاتي؟ هل يمكن أن يقود هوس الكاتب ببطله الورقي إلى أن يتخيله إنسانا ينبض بالحياة؟ لا، يستحيل ذلك، عمر ليس مجرد بطل ورقي صنعه خيالي الخصب وأحببته لأنه الرجل الذي لا يمكن أن أكونه، لقد التقيته، وتحدثت معه، ولمسته، وقّبلته.. لا أعتقد أنه موجود فقط داخل عقلي..

أقرر أن أقصد غدا مقهى " النجم الهارب" لأحيي ذكرى عمر، صحيح أنني أهرب دوما من ذكرياتي الحارقة، ولكن علي أن أعود إلى مسرح حبي..

***

لا أستطيع أن أنام، مع إشراقة الصباح أتسلل خارج البيت، يلزمني أقل من ساعتين لأصل إلى مدينة البيضاء التي كنت أعمل بها، و التي غادرتها هربا من الذكريات..

لا أذكر أي شيء رأيته في طريقي من مسقط رأسي إلى المدينة التي شهدت فرحي ووجعي، كل ما أذكره أنني غفوت قليلا في القطار، ورأيت كابوسا جديدا، كنت تائهة في غابة موحشة ومظلمة، وكنت خائفة كثيرًا، ركضت لأبحث عن مخرج منها دون جدوى، وبغتة، توقفت أمام شجرة متآكلة، أوراقها ميتة، وتيبست أطرافي بعدما سمعت صدى صوت الطيف القاتل يتردد في أرجاء الغابة:

- الذاكرة تنتصر دوما على النسيان..

استيقظت من كابوسي،كان القطار قد وصل إلى محطة الذكريات، بعد لحظات، وجدتني أقف قرب مدخل "النجم الهارب" وأنا مترددة، لكنني قررت أن أدخل لأواجه ذكرياتي، أمشي بحذر خوفا من أن

أحطم الذكريات المبعثرة بين زوايا المقهى، أختار أن أجلس في ركن عمر المفضل، عساني أتمكن من استحضار طيفه العشقي، يأتي النادل الذي يعرفني جيدا، يبتسم لي مُرحبا و يقول:

– صباح الخير أستاذة عايدة،سعيد برؤيتك مجددا بعد طول غياب، قهوة سوداء كالعادة أليس كذلك؟

أومىء برأسي موافقة، قبل أن يذهب لجلب طلبي، يتوقف ليقول:

– لقد افتقدنا تحقيقاتك ومقالاتك الهامة للغاية أستاذة، هل من جديد يلوح في الأفق؟

أجيبه:

– أنا على وشك إنهاء روايتي القادمة،لكن نهايتها تستعصي عليّ..

ما إن ينصرف النادل، حتى ألمحه يدخل إلى المقهى..

ذاك الرجل الغامض، الاستثنائي، الذي اقتحم قلبي قبل عام..

تتبعثر أحاسيسي، و يخفق قلبي بشدة، أفرك عيني لأتأكد من أن ما أراه حقيقي، بعدما اختلطت علي الحقيقة بالوهم، وأدرك أنه هو بالفعل، رجل حقيقي و ليس محض خيال إبداعي..

أفكر في أن أرتمي بين أحضانه وأبكي بكل ما في داخلي من حزن، أنهض وأستوقفه، وأحس بخنجر يمزق شراييني بعدما يوجّه إلي نظرة

فارغة، وكأنه لم يتعرف علي، ولم يسبق أن صادفني من قبل، أمسكه من يده، وأكاد أسقط أرضا وأنا أسمعه يقول :

– المعذرة، هل سبق والتقينا؟

لوهلة، أعتقد أنني عالقة في كابوس رهيب، أو أن كل شيء لا يعدو أن يكون سوى مقلب سيء طال أكثر

من اللازم، أدنو منه، وأقول بصوت مرتجف:

– أنا عايدة، هل نسيتني، ونسيت كل ما عشناه معا يا عمر؟

أكاد أجن حين يرد علي:

– أعتذر سيدتي، لا أدعى عمر، أشك في أنك خلطت بيني وبين شخص آخر يشبهني..

يتوجه نحو طاولة أخرى غير طاولتنا المفضلة، ويجلس، ثم يشرع في تصفح إحدى الجرائد، دون أن يعيرني أدنى اهتمام، وكأن كل ما كان بيننا لم يكن..

ترى هل استطاع أن يبترني من ذاكرته، ويلقي بذكراي في محرقة النسيان، مثلما أضرم النار في ذكرياته كلها؟

هل من السهل أن ننسى شخصا كان يعني لنا الكثير في وقت من الأوقات، ونمضي قدما في طرق النسيان؟

وإذا كان الأمر كذلك، لماذا أعجز عن جعل حبه طي النسيان، لأصبح امرأة حرة وأنتهي من تشييع ذكراه بمجرد خطي لآخر سطر في روايتي اللعينة التي أفرغتني من دمي، وجعلتني أختبر أشد وأقصى أنواع التعذيب النفسي، وأرتكب أسوأ خطأ يمكن أن يقترفه الكاتب، وهو الاقتراب أكثر من اللازم من الأشخاص الذين يستلهم منهم رواياته، أيستحق المجد الأدبي أن نخاطر إلى هذا الحد، وأن ندمر أحاسيسنا ونستحيل داخليا إلى خرائب؟

وماذا لو امتلكت الشجاعة الكافية، لأول وآخر مرة في حياتي، وأحرقت مسودة هذه الرواية الملعونة لأتحرر من طيف هذا الحب القاتل؟

ها هو ذا بطل أحلامي أمامي، لكنه عاجز عن تذكري، مثلما أنا عاجزة عن نسيانه..

لأول مرة، أعي أن كل ما يشاع عن استحالة إصابة قلوبنا بداء النسيان، مجرد ترهات نسجتها الروايات والأفلام الرومانسية، لنبقى على قيد الأمل..

آه يا عمر، أيها القريب – الغريب، أتراك نجحت أيضا في مسح ذاكرتك القلبية؟ لتحقق أخيرًا أمنيتك في أن تتحرز من ذاكرتك مثل بطلة روايتي الأولى؟

لكن قل لي بربك، كيف السبيل إلى النسيان؟

أستجمع قواي وأتوجه صوبه، وتتسارع نبضات قلبي وأنا ألمح سلسلة تحمل علامة الما لا نهاية تحت ياقة قميصه الأسود..

منذ البدء، كان الدائن..

ليس هناك أسوأ من أن ترى الحقيقة بوضوح، حقيقة الشخص الذي أحببته بكل ما تملك من مشاعر، قبل أن تكتشف أن لا وجود لتلك الشخصية التي همت بها في الواقع، وأن كل ما في الأمر، أنه أجاد التلاعب بك ليصل إلى مبتغاه،ويحقق رغبته في تخليدك إياه داخل عمل روائي..

أقدرنا – نحن الكتاب– أن نتعثر دوما و أبدا بمسترقي القلوب؟

أجلس قرب وعاء عمر، يتظاهر بأنه لم يلحظني، وكأنني صرت لا مرئية بالنسبة إليه، يستمر للحظات في قراءة الجريدة، وفجأة، يرفع رأسه نحوي، و يهمس لي بلهجة غاضبة:

– ألم أقل لك إنني قتلت عمر لأصير المسيطر وأحقق أهدافي؟

أجفل، وأقرر أن أرحل من هذا المقهى اللعين، لم يكن علي أن أعود إلى مسرح جريمة شغفي، وما كان علي أن أنبش قبور الذاكرة، لأحاول القيام بطقوس إحياء أشباحها..

ثوان قبل أن أدير ظهري لذاك الحبيب / الشبح، أسمعه يقول:

– "ملتقانا في الجحيم"

***



ذاكرة قاتل

ألتفت ورائي بين الحين و الآخر لأتأكد من أنه لا زال يتعقبني، فجأة يختفي كما ظهر مخلفا وراءه عددا هائلا من الفراشات السوداء الضخمة، تحط إحدى الفراشات فوق كتفي، أهزه بقوة لتبتعد عني، أوشك على الموت رعبا و أنا أرى الطيف القاتل يقف في نفس المكان الذي تبخر فيه الذئب المتحول، أحاول الهرب لكنه يطاردني، أنظر إليه لعلي أتبين ملامحه لكن غطاء رأسه يخفي وجهه بالكامل، أستسلم و أتوقف أمامه مباشرة، يضحك طويلا قبل أن يقول لي:

– كل الطرق تؤدي إلى الانتقام، أليس كذلك يا سيدة الخسارات؟

أسأله:

– من أنت؟ هل أنت كائن بشري أم أنك شيطان مفترقات الطرق؟

يجيبني:

– أنا ظلمة الروح..أنا قاتل الأحلام..

Cover by #ahz_art


9789774885587


دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الفاضي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01111947957